وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر -سعيدة

كلية الاداب واللغات والفنون

قسم اللغة العربية

تخصص:نقد ومناهج

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس

عبد القاهر الجرجاني ودوره في تطوير علم المعاني من خلال كتابه دلائل الاعجاز

من إعداد الطالبة:

* ديداوي عبد الهادي

*يحياوي معمر هشام

تحت إشراف الأستاذ:

* دخماني شيخ

الموسم الجامعي :

2020-2019

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر و التقدير

الحمد لله الذي وفقنا إلى إتمام هذا العمل المتواضع وهو أهل الحمد والمغفرة

والصلاة والسلام على واسطة كل نعمة في الدنيا والآخرة.

كما نطلب من الله سبحانه وتعالى في معرض الشكر والامتنان أن يجعل هذا

العمل نافعا للبلاد والعباد.

نشكر الأستاذ المؤطر : "دحماني شيخ " الذي أشرف على هذا العمل

ولم يبخل عنا بملاحظاته وانتقاداته البناءة، وكان لنا عونا ومشجعا للوصول

بهذا العمل إلى هدفه المنشود،

ونشكر جميع عمال وأساتذة كلية الاداب واللغات والفنون

– سعيدة–

وكل من ساعدنا من قريب أو بعيد

الإهداء

إلى كل من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاجتنبه والى كل إخوة الإيمان في كل عصر واوان .

نحمد الله عز وجل الذي وفقنا إلى إتمام هذا العمل المتواضع الذي اهدي ثمرته

إلى معدن الصفاء والنقاء وبر الأمان والوفاء ومهد الاطمئنان والعطاء الوالدين الكريمين أطال الله في عمرهما .

إلى من ربتني وعمري شهرين وسهرت الليالي وصبرت للآلام من أجل ابتسامتي وفرحت لفرحي وتألمت لمرضي والتي أرشدتني ونصحتني وعلمتني أمي الغالية أطال الله في عمرها وابي العزيز وبارك فيها.

إلى كل أصدقائي الذين عشت معهم طفولتي والذين درست معهم

إلى كل من حملتهم ذاكرتي ولم تحملهم مذكرتي.

عبد الهادي

الإهداء

مصداقا لقوله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

" و قضى ربك أن لا تعبد إلا إياه و بالوالدين إحسانا ..."

أولا أهدي ثمرة جهدي المتواضع إلى أعز ما أملك في هذا الكون ، هؤلاء الذين

عانوا من أجلي ...ساهرا وصابرا لتكبيري وتعليمي ...هؤلاء الذين كرمّهم الله سبحانه

تعالى ،ألا وهما أبي وأمي الأعزاء ... قاوموا كل الصعاب ومتاعب الحياة من أجلي

وأحسنوا تربيتي وأرفقوا دعواتهم وتشجيعا تهم ليلا ونهارا، إلى أبي وأمي ولو أهديت لهم

كنوز الدنيا ما أوفيت لهم حقهم..... حفظهم الله...

كل الأصدقاء الأوفياء

و كل الذين لم أذكرهم و لم يكتبهم قلمي..أشكرهم على المساندة طيلة سنواتي الدراسية.

هشام

فهرس المحتويات

بسملة

شكر وتقدير

اهداء

مقدمة .....

الفصل الأول : علوم البلاغة نشأتها وتطورها

تمهيد.....

المبحث الأول: علم البلاغة عند العرب قبل الإسلام .....

المطلب الأول: مفهوم علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع .....

الفرع الأول: تعريف علم المعاني .....

الفرع الثاني: تعريف علم البيان.....

الفرع الثالث: علم البديع.....

المطلب الثاني: البلاغة عند العرب قبل الإسلام .....

المطلب الثالث: البلاغة في عصر صدر الإسلام .....

المبحث الثاني: البلاغة في العصر الاموي والعباسي .....

المطلب الاول: العصر الاموي.....

المطلب الثاني: البلاغة في العصر العباسي.....

المبحث الثالث: البلاغة قبل عبد القادر الجرجاني .....

المطلب الأول: دلائل الاعجاز .....

المطلب الثاني: التقديم والتأخير.....

الفصل الثاني: علوم البلاغة عند الإمام عبد القادر الجرجاني

تمهيد.....

المبحث الأول: الإمام عبد القادر الجرجاني حياته ومؤلفاته.....

المطلب الأول: تعريف عبد القادر الجرجاني .....

المطلب الثاني:حياته.....

المطلب الثالث: انجازاته وبعض مؤلفاته.....

المبحث الثاني: جهوده في تطوير علوم البلاغة .....

المطلب الاول: المعاني.....

المطلب الثاني: البيان .....

المطلب الثالث: البديع.....

المبحث الثالث: علم المعاني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال مؤلفاته ....

المطلب الاول: دلائل الاعجاز .....

المطلب الثاني: أسرار البلاغة .....

خاتمة.....

قائمة المصادر والمراجع.....

مقدمة

مقدمة

إن الحديث عن البلاغة العربية يدفعنا إلى العودة إلى ما قبل خمسة عشر قرنا، حيث كانت البلاغة متناثرة في النصوص الإبداعية الأدبية، والأحكام النقدية، والملاحظات الشعرية والنثرية؛ حيث كانت للعرب قبل الإسلام أسواق موسمية يأتون إليها قصد البيع والشراء، ومن أشهرها سوق ''عكاظ ''، وسرعان ما تحولت هذه الأسواق إلى مراكز ثقافية للندوات الأدبية والإلقاءات الشعرية، ويحكى أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء، و ينشد عليه الشعراء قصائدهم، فلم يكن شاعرا فحسب لكنه كان شيخ الحكام لهذه المناظرات الشعرية، والأدبية، ومن أشهرها قصة الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري والخنساء شاعرة الرثاء .

البلاغة في اللغة .(ضبط المعنى اللغوي)

جاء في لسان العرب . '' بلغ الشيء : بلوغا وبلاغا : وصل وانتهى ،وأبلغه هو إبلاغا وبلغه تبليغا .

قال الشاعر : قالت ولم تقصد لقيل الخنى مهلا فقد أبلغت أسماعي

والبلاغ : ما بلغك .والبلاغ : الكفاية .ويقال أمر بلغ بالفتح .وأمر بالغ وبلغ والبلاغة : الفصاحة والبلغ : البليغ من الرجال .ورجل بليغ وبلغ .حسن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كما في قلبه .والجمع بلغاء، وقد بلغ بالضم، بلاغة أي صار بليغا وقول بليغ . بلغ والبلاغات كالوشايات وبالغ فلان في أمري إذا لم يقصر فيه وسميت البلاغة بلغة لأنك تتبلغ بها فتنتهي بك إلى مافوقها وهي البلاغ أيضا والبلاغ التبليغ وجاء في كتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة 538 هجري

مادة (ب ل غ): '' أبلغه السلام وبلغه. وبلغت ببلاغ الله : بتبليغه وبلغ في العلم المبالغ .وبلغ الصبي .وبلغ منَى ما قلت، وبلغ منه البلغين .وأبلغت إلى فلان : فعلت به ما بلغ به الأذى والمكروه البليغ [...]وبلُغ الرجلُ بلاغةً فهو بليغٌ وتبالغ في كلامه : تعاطى البلاغة وليس من أهلها .

و التعريف نفسه نجده في مجموعة من المعاجم الأدبية واللغوية: (كتاب الوافي، وكتاب الصحاح، ومعجم البلاغة...إلخ)، حيث تتفق على كون البلاغة من مادة ب ل غ وتعني الوصول والنهاية وليست هي الفصاحة، هذه الأخيرة التي تتضمنها البلاغة، لكن هنا فرق بين البلاغة والفصاحة، وهذا ما سأتوقف عنده في التعريف الاصطلاحي للبلاغة . كما نجد هناك تعريفا للبلاغة في معجم تاج العروس لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، يقول: '' بلغ : (بلغ المكان ،بلوغا)، بالضم : (وصل إليه) انتهى، ومنه قوله تعالى: '' لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس'' سورة النحل الآية7 .ومنه أيضا '' فإذا بلغن أجلهن '' سورة البقرة 234 .ومنه أيضا البلوغ والإبلاغ : الانتهاء إلى أقصى المقصد و النهي [...] والبلاغة على وجهين : أحدهما : أن يكون بذاته بليغا، وطبقا للمعنى المقصود به، وصدقا في نفسه، ومتى احترم وصف من ذلك كان ناقصا في البلاغة . والثاني : أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل به أمرا ما، فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له

من هنا نستنتج أن البلاغة في اللغة العربية تؤدي معاني مختلفة الدلالة والوضوح، إلا أنها تلتقي في التعبير عن الوصول إلى المبتغى و النهاية .

البلاغة في الاصطلاح .

يعرف الجاحظ البلاغة بقوله: " البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي إليك السامع إلى حقيقته [...] والغاية التي يجري إليها السامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان

نستشف من كلام الجاحظ أن البلاغة هي البيان المرتبط بالمعنى والفهم والإفهام، وكل هذا من أجل إيصال المعنى إلى قلب السامع / المتلقي، والحفاظ على محتوى الرسالة واضحة المعالم والمعنى.

إلى جانب الجاحظ نجد أبا هلال العسكري يعرف البلاغة بقوله: " البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع؛ فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

جدير بالرصد أن نوضح أن الاختلاف بين العسكري والجاحظ في الألفاظ تركيبا ومعنى، لكن الهدف واحد هو الوصول إلى قلب السامع، و إيصال المعنى والدلالة دون مانع يحول ضد ما أراد المتكلم. كما نجد أيضا تعريفا للسكاكي حول البلاغة، يقول: هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، وفي هذا التعريف للسكاكي نجده قد أدخل بعض المفاهيم البلاغية من قبل التشبيه والمجاز والكناية. مما يجعل من البلاغة تستهدف قلب السامع / المتلقي أيضا .

وقد سئل عبد الله بن المقفع ما البلاغة ؟ قال: " البلاغة اسم جامع لمعاني تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما

يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل [...] والإيجاز هو البلاغة من أين أتى ابن المقفع بهذا التعريف الصريح للبلاغة وارتباطها بمجموعة من المعارف الأدبية، والعلمية، والثقافية. هل أتى بهذا من معرفته الموسوعية؟، يجب لا ننسى أنه رجل فارسي الأصل أو كان هذا متداولا في عصره أو استفاد من الثقافتين الفارسية والعربية. مما يجعلنا نقف عند مسألة التأثير والتأثر في إرساء دعائم البحث البلاغي والنقدي العربيين . إضافة إلى كل من الجاحظ والعسكري والسكاكي وابن المقفع المتوفى سنة 142 هـ. نجد الرماني قد قسم البلاغة إلى عشرة أقسام هي : الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس، التصريف، التضمين، المبالغة وحسن البيان. وهذا الأخير هو المقصود بالبلاغة وبيت القصيد.

و أحسن البلاغة الترصيع والسَجع واتساق البناء واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة وإيراد الأقسام موفورة بالتمام وتصحيح المقابلة بمعاني متعادلة وصحة التقسيم باتفاق النظوم وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف والمبالغة في الوصف وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي وإرداف اللواحق وتمثيل المعاني. وإن كان هناك التشبيه والمجاز و الكناية بعدين عن تصنيف حمادي صمود، في مفاهيم البلاغة العربية . وأن الفرق بين البلاغة والفصاحة من حيث المعنى والدلالة، يقول ابن سنان : أن الفصاحة مقصودة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفصل عن مثلها

بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه

نشأة البلاغة العربية .

لقد اهتم العرب بالبحث البلاغي والنقدي بعد نزول القرآن الكريم، والاهتمام بقضاياه ومعانيه، وامتداد الدعوة الإسلامية إلى الدول المجاورة لشبه الجزيرة العربية. وكانت هذه المرحلة التي اهتم فيها العلماء العرب بالقرآن دراسة و شرحا وتفسيرا، اهتم العرب أيضا بجمع لغتهم المتفرقة بين القبائل العربية بشبه الجزيرة العربية والشام.

أما ما يخص المصطلحات البلاغية والنقدية، فأول ما ظهرت هذه المفاهيم اللغوية والدلالية لم تكن واضحة المعالم، دقيقة التعريفات، وهنا أقف عند مفهوم البيان الذي أعطاه الجاحظ مفهوم البلاغة، وأيضا هذا الأخير الذي طال ما حمل مفهوم الفصاحة والبديع، خلال القرون الأولى – الأول والثاني – في نشأة البلاغة العربية .هذه المصطلحات والمفاهيم التي أطلقها العرب على بعض الملاحظات النقدية في الشعر العربي، وهنا نستحضر قصة النابغة الذبياني والجارية التي اكتشفت عيب من عيوب القافية والروي في شعر النابغة؛ (الإقواء) . ولقد كانت هذه الملاحظات عابرة يدركها العرب بحكم تمرسهم وذوقهم وسليقتهم اللغوية، في التميز بين الكلام البليغ والقول الدارج السوقي العامي . وبين ما هو من البلاغة والنقد وبين ما هو عار عليهما وليست له علاقة بهما.

وكما سبق ذكر ذلك فلقد تمثل تلك الأحكام النقدية والبلاغية والمفاضلات الشعرية، التي كان يقوم بها النابغة الذبياني بسوق عكاظ، في تفضيل شاعر عن آخر ومن بين أشهر محاكمته التي عرفها الأدب العربي؛ هي تلك التي درت رحاها بين الشاعر حسان بن تابث الأنصاري والخنساء شاعرة الرثاء . وقد رجح فيها هذه الأخيرة عن حسان بن تابث . وكما نجد في تاريخ الشعر العربي مفاضلة شعرية في الزمن الغابر، بين الشاعر امرئ القيس وعلقمة بن عبدة الملقب بعلقمة الفحل، وكان فيها الحكم زوج امرئ القيس وانتصار فيها علقمة الفحل على امرئ القيس . إضافة إلى بعض المختارات الشعرية التي عرفها الأدب العربي؛ ومنها المفضليات، والأصمعيات، والحماسة، هذا ما يجعل منا نتشبث بكون البلاغة العربية نشأت في بيئة عربية، كانت ارهاصاتها الأولية في العصر الجاهلي، تم نمت وازدهرت خلال العصر العباسي بعيدا عن التأثير الأرسطي . كما يقول ابن خلدون أنها ولدت في البيئة العربية لخدمة مقاصد عربية، ويأتي على رأس هذه المقاصد منع اللحن، وهنا تظهر علاقة البلاغة باللغة وعلمي النحو والصرف . بعد دخول مجموعة من الشعوب غير العربية إلى الدين الإسلامي .

ومن بين العلماء العرب الذين أسهموا في نشأة وإرساء دعائم البلاغة العربية نذكر:

- الجاحظ المتوفى سنة 255 هج وكتابيه : البيان والتبين والحيوان .
- الرماني المتوفى سنة 386 هج ،كتاب النكت في إعجاز القرآن .
- أبو هلال العسكري المتوفى سنة 395 ، كتاب الصناعتين .

- البقلاني المتوفى سنة 403 هج كتاب إعجاز القرآن .

- عبدالقاهر الجرجاني ،أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز .

- السكاكي المتوفى سنة 626 هج ، كتب مفتاح العلوم .

وبعد هؤلاء لم يتبق من البلاغة العربية إلا الشروحات و التلاخيص ، مع الخطيب القزويني والفلاسفة العرب .

أما بخصوص القرآن الكريم ودوره في نشأة البلاغة العربية، فلا يمكننا الحديث عن بلاغة عربية خارج القرآن الكريم والشعر العربي، والحديث النبوي الشريف. ففي القرآن الكريم، قال تعالى : '' الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان وقال رسول الله '' إن من الشعر لحكمة، وإن من السحر لبيان ''13 . ولفهم القرآن الكريم والسنة النبوية لابد من العودة إلى اللغة العربية والبلاغة والشعر، قال ابن العباس: '' إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي '' 14.

وهناك مجموعة من الكتب اللغوية والبلاغية التي اهتمت بالقرآن الكريم شرحا ونقدا وبلاغة نذكر :

- كتاب ''معاني القرآن'' للفراء المتوفى سنة 207 هـ.

- كتاب ''مجاز القرآن'' لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى 210 هـ

- كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة 226 هـ .

في هذه الكتب التي اعتنت بدراسة القرآن الكريم شرحا وتفسيرا، نجد بين دفتيها مصطلحات ومفاهيم بلاغية، ونقدية، وقضايا لغوية. كما نجد تعريفات لهذه المفاهيم يرتبط بالقرآن والثقافة العربية. من قبيل المجاز الذي كان بالنسبة لهؤلاء الذين اهتموا بدراسة القرآن الكريم هو الأسلوب.

لقد أسهمت الدراسات القرآنية والشعرية في ظهور حس نقدي بلاغي عند العلماء الرواة، جعلهم هذا الحدس والاهتمام يرجعون إلى البوادي العربية؛ من أجل جمع شتات اللغة العربية. نثرا وشعرا وأمثال وحكايات. بعد ما شعروا بالخطر الذي بدأ يلاحق اللغة العربية (اللحن) . بعد دخول الشعوب غير العربية المجاورة إلى دائرة الإسلام ، ما نتج عنه من تفشي اللحن والأغلاط اللغوية.

إن أول من اهتم بجمع الأشعار وتدوينها تمهيدا لعملهم النحوي الرامي إلى تقعيد اللغة، وضبط نواميس استعمالها. وقد أدَى بهم ذلك، بطبيعة الحال إلى إثارة عدد من القضايا المتصلة بلغة تلك الأشعار وأساليبها، كما تولدت عن اهتمامهم بتعقب سقطات الشعراء، وإحصاء محاسنهم و نواة أعمالهم التي تضمنت إشارات بلاغية لا يستهان بها [...] فتقنين اللغة هو اللبنة الأولى في البناء البلاغي، إذ به تتحدد هندسة المباني وتتضح النواميس الخفية المتحكمة في الفعل اللغوي من جهة الخطأ والصواب ''. هكذا يكون الاهتمام باللغة العربية صرفا ونحوا، دراسة وتحليلا، قد لعب دورا مهما في نشأة البلاغة العربية، إلى جانب الاهتمام بالقرآن والشعر.

وتعتبر مؤلفات الجاحظ ''البيان والتبين '' و''الحيوان '' أقدم الكتب والصحائف التي وصلتنا تعتني بالكلام من جانبه الدلالي واللغوي .

ومن بلاغة الشعر عند العرب يقول قدامة بن جعفر المتوفى سنة 328 هـ: الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى.بهذا يضعنا قدامة الذي يعتبر صاحب أول كتاب نقدي في الشعر العربي والأدب، حيث عرف فيه بالشعر وحدوده.

وقد عرف السكاكي الشعر: " والشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان .ورغم ما ألف من كتب في نقد الشعر بعد قدامة بن جعفر إلا أن كتاب " نقد الشعر" احتل مكانة مرموقة بين النقاد والبلاغيين العرب الذين اهتموا به شرحا ونقدا وتلخيصا .فإلى اليوم لازال تعريف قدامة للشعر متداولا بين النقاد المحدثين الذين اهتموا بالشعر دراسة وتحليلا . لكن يمكن أن نقول إن كتاب "البديع" يعتبر: " على صغر حجمه وقلة ما أضاف إلى مادة العلم، منعرجا حاسما في التأليف البلاغي ومساهمة فعالة في بلورة حدود العلم وتخليصه من تبعية العلوم الأخرى

بهذا يكون الاهتمام بدراسة الشعر قد أسهم في نشأة علم البلاغة وعلومها التي قسمها السكاكي إلى ثلاثة علوم هي : علم البيان وعلم البديع وعلم المعاني، يقول القاضي الجرجاني المتوفى سنة (392هـ): "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن يشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسليم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب بيه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله و شوارد أبياته ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . فالاهتمام بالشعر وقضاياه هو اهتمام بالبلاغة وقضاياها، هكذا يكون الشعر قد لعب دورا مهما في نشأة علم البلاغة .

كما أشرنا إلى ذلك سابقا باهتمام اللغويين العرب بجمع اللغة . وإن " تقنين اللغة هو اللبنة الأولى في البناء البلاغي إذ به تتحدد هندسة المباني وتتضح النواميس الخفية المتحطمة في الفعل اللغوي من جهة الخطأ والصواب

ولقد اتبعنا خطة بحث تحوي على

الفصل الأول : علوم البلاغة نشأتها وتطورها الذي قسمناه الى ثلالث مباحث

المبحث الأول: علم البلاغة عند العرب قبل الإسلام يتضمن :

المطلب الأول مفهوم علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع و المطلب الثاني البلاغة عند العرب قبل الإسلام و المطلب الثالث البلاغة في عصر صدر الإسلام

اما المبحث الثاني: البلاغة في العصر الاموي والعباسي يمتضمن المطلب الاول: العصر الاموي و المطلب الثاني: البلاغة في العصر العباسي

اما المبحث الثالث البلاغة قبل عبد القادر الجرجاني قسمناه الى

المطلب الأول: دلائل الاعجاز و المطلب الثاني: التقديم والتأخير.

امن من جهة الفصل الثاني: علوم البلاغة عند الإمام عبد القادر الجرجاني قمناه الى ثلاث مباحث :

المبحث الأول: الإمام عبد القادر الجرجاني حياته ومؤلفاته ويحتوي على المطلب الأول تعريف عبد القادر الجرجاني و المطلب الثاني:حياته و المطلب الثالث: انجازاته وبعض مؤلفاته.

اما المبحث الثاني: جهوده في تطوير علوم البلاغة فيتضمن المطلب الاول المعاني و المطلب الثاني: البيان و المطلب الثالث: البديع.

وأخيرا المبحث الثالث: علم المعاني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال الذي يحنوي على

المطلب الأول: دلائل الاعجاز و المطلب الثاني: أسرار البلاغة وفي النهاية الخاتمة

الفصل الأول : علوم البلاغة نشأتها وتطورها

تمهيد:

لا شك في أن الغموض ما زال يسُود ظروفَ نشأة البلاغة العربية عند العرب باعتبارها علمًا من علوم اللِّسان؛ لذلك يصعُب من هذا المنطلق أن تُضبط بتاريخ معيَّن، أو تُنسَب إلى مفكر واحد، كما هو الحال بالنظر إلى العلوم الأخرى؛ وإنما هي في الحقيقة عمليةٌ تدريجية بطيئة، تضافرت على حدوثها عواملُ مختلفة، وتياراتٌ متنوعة.

المبحث الأول: علم البلاغة عند العرب قبل الإسلام

المطلب الأول: مفهوم علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع

الفرع الأول: تعريف علم المعاني

علم المعاني هو تطبيق عملي لفكرة النظم التي شرح بها عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله إعجاز القرآن الكريم، والتي عرف النظم فيها بقوله: اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها.[1]

يعني عبدالقاهر بالنظم تعليق الكلام بعضه على بعض ويقول: (إنه توخي معاني النحو) .. نقرأ في علم النحو مثلا أن الفعل لا بد له من فاعل وقد نرى الخبر يتقدم على المبتدأ، والمفعول يتقدم على الفعل، وحينما نبحث عن سر هذا التقديم فإنا نجد أن الأمر ليس جزافا، ولا بد من غرض وسبب من أجله كان هذا التقديم للخبر على مبتدئه، وللمفعول على فعله، لذلك يرى عبدالقاهر رحمه الله أننا حينما ننطق بأي جملة، ونركبها من كلماتها، فإن هذا التركيب ناشئ ـ أولا وقبل كل شيء ـ عن المعنى الذي هيأناه في نفوسنا ، وأردنا أن نعبر عنه بهذه الألفاظ.

النظم إذن لا بد له من أمرين اثنين: المعنى الذي نريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبر عن هذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ حتى إن كانت مادته

[1] أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبان والبديع ، دار هنداوي للنشر والتوزيع ، دط، ص 248

واحدة مثال: قد نتجاذب الحديث معا فيرى بعضنا أن المتنبي كان حكيما، وليس حريا أن يوصف بأنه شاعر، فأقول معبرا عن المعنى الذي في نفسي: إنما المتنبي شاعر

وقد نتجاذب أطراف الحديث مرة أخرى فبعضنا يرى أن أبا تمام أشعر من المتنبي، وبعضنا الآخر يرى أن ابن الرومي أشعر منهما، ولكني أرى عكس ذلك فقد ثبت في نفسي أن المتنبي أشعر منهما فأعبر عن هذا المعنى فأقول: إنما الشاعر المتنبي تغيير في ترتيب الألفاظ مع تعريف أحدهما ، المعنى مختلف تبعا لاختلاف الموقف الذي قيلت فيه كل جملة واختلاف المعنى الكامن في النفس، فجاءت الألفاظ حاملة هذا المعنى بالشكل الذي يناسبه)النظم إذن أن يكون ترتيب الكلام وأنت تنطق به قد صمم تصميما تاما ليوافق المعاني التي تريد أن تعبر عنها ، فهذه العبارات مثلا (طلع القمر . ما طلع القمر . ما طالع القمر) يقول عنها النحوي: كلها جائزة ولكل منها عندي تخريج إعرابي لكن البلاغي يرى لكل منها حالة خاصة وموقفا معينا اقتضى صياغتها على هذه الطريقة [2].

و من تعريفات العلماء لعلم المعاني وكلها ذات معنى متقارب.[3]

هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال) الإيضاح

**هو علم يعرف به أحوال الكلام العربي التي تهدي العالم بها إلى اختيار ما يطابق منها مقتضى أحوال المخاطبين رجاء أن يكون ما ينشئ من كلام أدبي بليغا

[2] أحمد الهاشمي، نفس المرجع السابق، ص 249

[3] عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية ، علم المعاني ، دون تاريخ، طبعة01 ، القاهرة ص 35

**علم نظم الألفاظ والعبارات على أسلوب معين يراعى فيه أمران هما: قواعد النحو ومطابقة الكلام لمقتضى الحال)

نستفيد من علم المعاني أمرا مهما هو أنه (لا ترادف بين الجمل: بل لكل ترتيب دلالة خاصة، وفيه معنى ليس في الآخر، وإن أي تغيير يطرأ على التركيب بتقديم أو تأخير، او حذف أو ذكر، أو تأكيد أو تركه..الخ يؤدي إلى تغيير في معناه

مكانة علم المعاني بين العلوم

أما مكانته بين العلوم الأخرى فهيأنه ألصقها بالقرآن الكريم وبه عُرف إعجازه.. بل هو علم يشتمل على سائر العلوم وليس بالضرورة أن يشتمل عليه علم النحو أو الصرف أو البديع مثلا، فلا يعتد فيه بكلام لم يراعَ فيه الوجه الصحيح لبناء الكلمة في الصرف، ولا بكلام نُصب فيه ما حقه الرفع، ولا بصورة بديع لم يحسن صاحبها التأتي إليها

إن ثمرة هذا العلم هو الوقوف على الأسرار التي يرتفع بها شأن الكلام ويفضل بعضه بعضا، ومعرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله بم من حسن الوصف ولطف الإيجاز وجودة السبك وبراعة التراكيب وجزالة الكلمات وعذوبة الألفاظ ومحاسن الكلام، والوقوف على بديع القول وأسرار البلاغة وأسباب الفصاحة وغير ذلك.[4]

[4] عبد المتعال الصعيدي ، نفس المرجع السابق، ص 36

الفرع الثاني: تعريف علم البيان

البيان لغة: الكشف والظهور.

واصطلاحاً: أُصول وقواعد يُعرف بها ايراد المعنى الواحد بطرق متعدّدة وتراكيب متفاوتة: من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والكناية..، مختلفة من حيث وضوح الدلالة على ذلك المعنى الواحد وعدم وضوح دلالتها عليه، فالتعبير عن (جود حاتم) ـ مثلاً ـ يمكن أن يكون بهذه الألفاظ: جواد، كثير الرماد، مهزول الفصيل، جبان الكلب، بحر لا ينضب، سحاب ممطر، وغيرها من التراكيب المختلفة في وضوح أو خفاء دلالتها على معنى الجود[5]..

أركان علم البيان

ثم انه لّما اشتمل التعريف على ذكر الدلالة ولم تكن الدلالات الثلاث: المطابقيّة والتضمنّية والإلتزاميّة كلها قابلة للوضوح والخفاء، لزم التنبيه على ما هو المقصود، فإنّ المقصود منها هاهنا: هي الدلالة العقليّة للألفاظ، يعني: التضمنّية والإلتزاميّة، لجواز اختلاف مراتب الوضوح والخفاء فيهما، دون الدلالة الوضعيّة للألفاظ يعني: المطابقيّة، لعدم جواز اختلاف مراتب الوضوح في بعضها دون بعض مع علم السامع بوضوح تلك اللفاظ، وإلاّ لم يكن عالماً بوضعها، فتأمل.

ثم انّ اللّفظ إذا لم يرد منه ما وضع له من دلالته المطابقيّة، وانّما أُريد به دلالته العقلية من تضمّن أو التزام، فإن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فمجاز، وإن لم تقم قرينة على عدم إرادة ما وضع

[5] عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ، دار المعرفة بيروت ط 01 ، 1978 ، ص 47

له فكناية، ومن المجاز ما يبتني على التشبيه، فيلزم التعرّض للتشبيه قبل التعرّض للمجاز والكناية، إذن: فعلم البيان يعتمد على أركان ثلاثة: التشبيه والمجاز والكناية.

الفرع الثالث: علم البديع

) البديع) لغة: هو من بَدَع وأبدع، أي: أوجده لا على مثال سابق.

واصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام.

والمحسنات على قسمين:

1. معنوية.

2. لفظية.

وبعلم البديع يكتمل مثلث علوم البلاغة في المعاني والبديع، وهي علوم تتحرى مواطن الصحة والحسن في كلام العرب وشره ونثره، من حيث المعاني والألفاظ في علاقاتها ومواقعها من الكلام[6]، لذا كان لزاماً على دارس اللغة العربية وآدابها أن يصيب قدراً من معرفة هذه العلوم، يكون له عوناً على أداء ما يرتجى منه في ميدانه الذي اختاره. ولما كان علم البديع منوطاً به إظهار ما في كلام العرب من جمال وحسن فإن علماءه الذين قصدوا لتقنينه ابتداء من ابن المعتز وقدامة قد استبانوا منه ما ينيف على المائة نوع، استظهروها من كلام العرب منظومة ومنثورة، قديمة وحديثة الذي عاصروه وعالجوه، وكان القرآن الكريم والحديث الشريف خير مثل وأسمى مثال لهم في درسهم البويعي .

[6] عبد القاهر الجرجاني ، نفس المرجع السابق، ص 48

لما كانت أنواع البديع التي قننها علماؤه ووضعوا لكل منها مصطلحه وشرطه مما يصعب على الطالب أن يلم بها جميعاً، فقد اعتنى المؤلف "محمود المراغي" بوضع كت

المطلب الثاني: البلاغة عند العرب قبل الإسلام

أن البلاغة عند العرب قديمةٌ قدمَ الأدب بشعره ونثره، ولعل أقدم ما وصل إلينا كاملًا من العربية يعود إلى العصر الجاهلي؛ فقد عرَف هذا العصرُ شعراءَ كثيرين وخطباء وبُلغاء، تميَّزوا بحسن البيان، وبقدرتهم على تذوق الكلام العربي، والاهتداءِ إلى مواطن الحُسن والقبح فيه، وبلَغوا مكانة رفيعة في البلاغة والبيان، وهذا ما تدل عليه مجموعُ الملاحظات النقدية والأحكام الفِطرية غير المعلَّلة التي صدَرت عن كثير من شعراء الجاهلية في الشعر؛ أمثال النابغة.

إن البلاغة في هذه الفترة كانت أمرًا فُطر عليه العرب، وهَدَتْهم إليه سليقتُهم، وعشقته نفوسهم، وأَلِفتْه ألسنتُهم وآذانهم، وعليه؛ لا يستطيع المتتبّعُ لها أن يجد فيها كلامًا يبيّن عناصر البلاغة وشروطَها وقواعدها، كما سيحصل لاحقًا.[7]

كما عرف العرب بالفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقد بلغوا في الجاهلية درجة رفيعة من البلاغة والبيان وقد صوّر القرآن ذلك في آيات عديدة وقوله تعلى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) كما وضح القرآن شدة قوتهم في الجدال والحجاج " ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون "

[7] مهدي صالح السامرائي ،تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، الطبعة الاولى، المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1977، ص 291

ومن أكبر الدلائل على أنهم بلغوا في البلاغة درجة عالية رفيعة أن كانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم وحجته الدالة على نبوته القرآن , حيث دعاهم إلى معارضته , وتحداهم بأن يأتوا في بلاغته الباهرة ، وهي بلا شك دعوة تدل بوضوح على تمكنهم ورسوخ قدمهم في البلاغة والبيان ، وعلى بصرهم بتمييز أقدار المعاني والألفاظ وتبيين مايجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير .

وقد وصف الجاحظ العرب بالبلاغة والفصاحة وقدرتهم على القول في كل عرض حيث يقول (والكلام كلامهم وهو سيد عملهم قد فاض به بيانهم وجاش به صدورهم وقد حفلت كتب الأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمزرباني بنماذج عديدة من النقد الجاهلي الذي كان بدور في أسواقهم المعروفة في الجاهلية كعكاظ ، من ذلك أن النابغة كانت كضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها فيقول فيها كلمته فتسير في الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها . من ذلك قصته المشهورة في تفضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وتفضيل الخنساء على بنات جنسها فثار لذلك حسان وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال حيث أقوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما[8]

فقال له النابغة : إنك لشاعر لو أنك قللت عدد جفانك وسيوفك وقلت يلمعن في الضحى ولو قلت يبرقن لكان أبلغ في المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً ، وقلت يقطرن من نجدة دما فدللت

[8] مهدي صالح السامرائي ، نفس المرجع السابق، ص292

على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن تفخر بمن ولدك ، فقام حسان منكسراً .

ومن ذلك أيضاً قصة طرفة بن العبد وهو صبي عندما سمع المتلمس ينشد قوله .

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق الجمل فقال طرفة : استنوق الجمل , فضحك الناس وسارت مثلاً , ومن ذلك أن العرب عابت على النابغة الذبياني الإقواء الذي في شعره ولم يستطع أحد أن يصارحه بهذا العيب حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه غناء قوله :-

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

إلى قوله :

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

ففطن النابغة فلم يعد إلى ذلك ، ويروي أنه حين خرج قال دخلت يثرب فوجدت في شعري صنعة فخرجت منها وأنا أشعر العرب .

وتروي كتب الأدب هذا البيت قوله .[9]

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خيّرنا الغرابُ الأسود

[9] مهدي صالح السامرائي ، نفس المرجع السابق، ص 19

وأنه أصلحه بقوله :- وبذاك تنعاب الغرب الأسود .

وهناك أمثلة عديدة لكننا نكتفي بهذا القدر مشيرين إلى أن العرب في جاهليتهم كانت لديهم ملكة فنية استطاعوا من خلالها معرفة الكلام وتمييز جيده من رديئه .

ولا يخفى أن هذه الملاحظات النقدية كانت تعتمد على الذوق فهي نقد ذاتي لا يقوم على التعليل والتفصيل ، وبمرور الزمن ذكر العلماء لهذه الأحكام والملاحظات النقدية تعليلات تقوم على أسس بيانية ، وتحول هذا النقد إلى نقد بياني ينظر إلى المعاني والألفاظ على أيدي البلاغيين

المطلب الثالث: البلاغة في عصر صدر الإسلام

لاشك أن للقرآن تأثيراً عظيماً في نشأة البلاغة وتطويرهما فقد عكف العلماء على دراسته وبيان أسرار إعجازه ، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي فاتخذوا آياته شواهد على أبواب البلاغة واعتبروها مثالاً يحتذى في جمال النظم ودقة التركيب .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم وهو كما نعلم كان أفصح العرب . كما كان شديد الاهتمام والعناية بالشعر والشعراء يحرص على سماعهم والإشادة بشعرهم من ذلك قوله لحسان رضي الله عنه " قل وروح القدس يؤيدك " وقوله عندما سمع قول النابغة الجعدي .[10]

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً

[10] محمد علي سلطاني ،البلاغة العربية في فنونها، جامعة دمشق،1980 ، ص 21

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أين المرتقى ياأبا ليلى : فقال إلى الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لا فض فوك " .

وقد ظلت وفود العرب تختلف في عهد الخلفاء الراشدين إلى المدينة وتجمعهم أنديتها فيخوضون في شعراء الجاهلية والشعراء والمخضرمين وينظرون في الشعر والخطب ويجرون المفاصلات بين الشعراء والخطباء وقد كان الخلفاء يخوضون في ذلك ولهم مشاركات في النقد من ذلك ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجاب : لا عافاك الله فقال له أبوبكر : علمتم لوكنت تعلمون قل لا وعافاك الله " وقد كانت لعمر وعلي رضي الله عنهما مساهمات في النقد ، فقد كان عمر بن الخطاب من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة من ذلك قوله " الشعر علم قوم لم يكن له علم أعلم منه "

وقوله في زهير " كان لا يعاظل في الكلام " أما علي رضي الله عنه فقد اشتهر بالفصاحة والبيان , وفصاحته معروفة لا تخفى على أحد "[11] وقد روى أن أعرابياً وقف على علي رضي الله عنه فقال : إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك فإن قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له علي : خطّ حاجتك في الأرض فإني أرى الضر عليك ، فكتب الإعرابي على الأرض إني فقير ، فقال علي : يا قنبر إدفع إليه حلتي الفلانية ، فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتني حلةً تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حلل الثنا حللاً

[11] محمد علي سلطاني ، نفس المرجع السابق، ص 22

إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحي نداه السهل والجبلا

لاتزهد الدهر في عرف بدأت به فكلّ عبد سيجزى بالذي فعلا

فقال عليّ ياقنبر أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أنزلوا الناس منازلهم .

وبهذا تبين لك أن للخلفاء معرفة بالشعر ونقده ، كما أن ملاحظاتهم النقدية كانت كالجاهلين جزئية فطرية تعتمد على الذوق دون تعليل لها .

هذه الأحكام والملاحظات هي التي استحالت على أيدي البلاغيين من أمثال الباقلاني والرماني والعسكري وعبد القاهر والسكاكي إلى قواعد بلاغية محددة تحديداً علمياً دقيقاً قصد منها الوقوف على وجه إعجاز القرآن البلاغي وتكوين الذوق الأدبي الذي يستطيع إنشاء الكلام البليغ ومعرفة جيدة ويفاضل بينه . وهنا سؤال على قدر كبير من الأهمية لِمَ لم تظفر البلاغة التعليمية بشيء من التدوين في عصر صدر الإسلام مادام أن تدوينها وتعليمها من أمور الدين أو من الأمور التي يحتاج إليها المسلم كما يحتاج إلى معرفة الحلال والحرام ؟[12]

الجواب على ذلك : أن الصحابة والتابعين كانوا يعرفون من القواعد البلاغية التي يقوم عليها إنشاء الكلام الفني والتي كانوا يعتمدون عليها في تمييز الكلام الجيد من الرديء لأنها كانت مركوزة في طبائعهم لذلك لم يحتاجوا إلى تدوينها على حد قول بهاء الدين السبكي في كتابه عروس الأفراح

[12] محمد علي سلطاني ، نفس المرجع السابق، ص 22

53/1 . ويعلل الزركشي صاحب كتاب البرهان في علوم القرآن عدم تدوين البلاغة في صدر الإسلام بأن القصد من إنزال القرآن الكريم تعليم الحلال والحرام وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان ، ولم يقصد منه تعليم طرق الفصاحة ، وإنما جاءت الفصاحة لتكون معجزة ، وكانت معرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان ، بخلاف استنباط الأحكام ، فلهذا تكلموا في الثاني دون الأول 132/2.

المبحث الثاني: البلاغة في العصر الاموي والعباسي

المطلب الاول: العصر الاموي

في عصر بني أمية كثرت الملاحظات النقدية كثرة عظيمة عملت فيها بواعث وأسباب كثيرة منها تحضر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار ، وازدهار العلوم ورقيها مما أدى إلى رقي الحياة العقلية للأمة الإسلامية .حيث أخذوا يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية والعقدية فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، والمرجئة والقدرية والمعتزلة ، فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات البيانية المتصلة بالكلام لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب ، بل وفي مجال الشعر والشعراء بل لعل المجال الثاني كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه[13].

[13] الطاهر القطبي الاستفهام بين النحو والبلاغة 1987 رسالة ماجستير غير منشورة جامعة حلب كلية الاداب، قسم اللغة العربية، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، ص 131

وفي هذا العصر نشطت حركة النقد سواء في مجال مجالس الخلفاء والولاة أو في الأندية الأدبية كسوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة حيث كان الشعراء يجتمعون في هذه الأسواق لينشدوا الناس خير ماصاغوه من الشعر.

وإليك بعض الأمثلة التي توضح ذلك.

من ذلك ما يقال من أن ذا الرمة كان ينشد بسوق الكناسة في الكوفة إحدى قصائده فلما وصل إلى قوله:

إذا غير النأي المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح صاح به ابن شبرمة : أراه قد برح وكأنه لم يعجبه التعبير بقوله لم يكد ، فكف ذو الرمة ناقته بزمامها وجعل يتأخر بها ويفكر ثم عاد فأنشد.

النأي إذا غيّر المحبين لم أجد....

ومن ذلك أيضاً أنه اجتمع الكميت ونصيب وذو الرمة ، فأنشدهما الكميت ما قال حتى بلغ قوله:

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب عقد نصيب واحدة : فقال له الكميت ماذا تحصى ؟ قال : خطأك باعدت بين الأنس والشنب.

فنصيب ينقد الكميت لأنه جمع بين أمرين لا يجتمعان في الخارج ولا في الذهن . وهو بما يعرف بمراعاة النظير[14].

ومن ذلك ما روي عن الحجاج حين أنشدته ليلى الأخيلية قولها:

[14] الطاهر القطبي ، نفس المرجع السابق، ص 132

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضةً تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزّ القناة ثناها

فقال لها الحجاج لا تقولي غلام ، ولكن قولي همام.

لأن لفظ الغلام يشعر بالصبوة والنزق والجهل.

ومن ذلك ما روي عن عبد الملك بن مروان حين مدحه عبد الله بن قيس الرقيات بقصيدة منها قوله.

يأتلق منها التاج فوق مفرقة على جبين كأنه الذهب فغضب عبد الملك وقال له : قد قلت في مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهابه من الله تجلت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة.

ومن ذلك ما روي عن ذي الرمة حين أنشد هشام بن عبد الملك قصيدته التي مطلعها:

ما بال عينيك منها الماء ينسكب[15]

فزجره هشام وقال له بل عينيك . فهشام عاب على ذي الرمة قوله لعدم مراعاته المقام ، وهو ما يعرف لدى البلاغيين ببراعة الاستهلال.

[15] الطاهر القطبي ، نفس المرجع السابق، ص 134

ولعلّ في كل ما قدمنا من الأمثلة ما يدل على أن الملاحظات البيانية في العصور القديمة جاهلية وإسلامية لم تغب عن أذهان البلاغيين حين أصّلوا قواعد البلاغة ، وهي بحق تعد الأصول الأولى لقواعدهم.

المطلب الثاني: البلاغة في العصر العباسي

لا تكاد تصل إلى العصر العباسي حتى أخذت الملاحظات البلاغية تزدهر ازدهارا عظيماً وتصطبغ بصبغة علمية وقد كان لذلك أسباب عديدة منها مايعود إلى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتين من المعلمين عنيت إحداهما باللغة والشعر وهي طائفة اللغويين والنحاة ، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة وهي طائفة الأدباء[16].

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نمو البحث البلاغي وإزهاره وتطوره فكثرت الملاحظات البلاغية بدءاً بسيبويه إمام النجاة وانتهاء بإمام البلاغيين.

عبد القاهر الجرجاني الذي اكتمل صرح البلاغة على يديه فوضع أصولها وأرسى قواعده حتى غدت البلاغة علماً مستقلاً.

[16] علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 1426 ه- 2006 م، ص 177

وقد اتسع مجال الترجمة بعده، لما تأسست دار الحكمة، وراح المترجمون ينقلون كتب الحضارات السابقة اليونانية والفارسية والهندية .[17]

ولا يلبث ابن المقفع أن يضع قاعدة مهمة لكل متكلم ، أن يكون في فاتحة كلامه ما يشير إلى غرضه، وهو ما سماه فيما بعد أصحاب البديع باسم حسن الاستهلال، ويضيف إلى ذلك فكرة ثانية تتصل بأبيات الشعر يقول إن خيرها ما دل صدره على قافيتها (وهذه على ما يبدو ، هو سماه أبن المعتز باسم رد الأعجاز على ما تقدمها بعد رد الأعجاز على الصدور وقد كان كتاب الدواوين، قد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نشرية كبيرة كما كانوا يأخذون أنفسهم بالتثقيف ثقافة واسعة بكل ما ترجم من التراث الأجنبي .و خاصة اليوناني ، و كذلك كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة العربية الأصيلة، المتعلقة بتصاريف الكلام وجوه استعماله، و التمييز بين جيده و رديئه، الأمر الذي جعل الجاحظ ينوه بهم حيث يقول :

فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا الجاحظ يوجه عنايته للفظ و لقدرتهم على توليد المعاني وجدنا الجاحظ مرة ثانية يشيد بعنايتهم بها هم و نابهو الشعر دون أن ينسى أهمية اللفظ ، يقول : " رأيت عامتهم لا

و على الألفاظ المتخيرة و المعاني المنتخبة و على الألفاظ العنبة و المخارج السهلة و الديباجة الكريمة و على الطبع السكر و علي السبك الجيد و على كل كلام له ماء و رونق ، و على المعاني التي إذا صارت إلى الصور عمرها وأصلحتها من نفسه القديم، وفتحت اللسان باب البلاغة والت الأفلام

[17] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، 1963 ، ص 301

على مدافن الألفاظ ، و أشارت إلى حسن المعاني [18]، ورابت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتب أعم وعلى السنة حذاق الشعراء اظهر (49) وقد كان لكتاب يعيشون حساب الكتابة في اساليبها ومعانيها ، وهم لا يزالون يعيدون النظر في صفات اليان الحسن و البلاغة بشركهم في ذلك من نبوؤ مناصب الوزارات مل جعفر البركمي الذي بلغ الذروة من الفصاحة والبلاهة، وفيه يقول الجهشياري كان جعفر بليغا كانها، وكان اذا وقع نسخت توقيعاته وتدرست بلاغته ، وفيه يقول تمامه بن اشرس : كان جعفر بن يحي أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وافهاما يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الارض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لا تستغنى جعفر عن الإشارة كما استغني عين الإعاقة .... (وقال ما رأيت أحدا كان لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنى تعصى عليه طلبه . أشد اقتدارا ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحي وقد سأله ثمامة، ما البيان؟ فأجابه بقوله أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه عن الشراكة وتستعين عليه بطول الفكرة والتي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف بعيدا من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، عنيا عن التأويل وواضح أن جعفر بريد بالاسم اللفظ ، ويرى أنه من الضروري أن يحيط اللفظ بالمعنى ويحصره حصرا ، وأن يخرج عن الشراكة ، ويبرأ من التكلف و التعقيد ولا يظهر فيه العمل و التصنع .

وجعفر هنا ليس سوى نموذج من الكتاب في هذا العصر، ومن يرد أن يلم موضوع الاعتقاد بالكتابة الفنية فليعد إلى مظانها في مصادر العصر العباسي الأدبية والبلاغية و اللغوية وإذا انتقلنا إلى شعراء

[18] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 302

هذا العصر، فإننا نجدهم أيضا يقطعون أشواطا من متأثرين بحياتهم الحضارية و العقلية الجديدة، فهم ليسوا مثل الشعراء الامويين لم يتصلوا من تقاليد الشعر الجاهلي ، ولما ساروا علي طريقهم من عمل الموضع هات وهياكل الفساد ، وما ظهر من جديد عنهم لم بعد حدود بعض المعاني[19]، أما العباسيون بهم نزعوا في يحتفظون فيه بالتقاليد الموروثة مع شيء من التطور الذي يمليه رفي العقل العربي مستقرا با طرا من المعارف الأجنبية ، وبما يحل الحسن العربي من تحضر ومن رقة الشعور ، وهذا المنزع كانوا يضطرون اليه اضطرارا قد عينهم بمديح الخلفاء والوزراء والعود والأمراء ، طلبا للمكافآت والجزائز ، ويقال هذا المنزع منزع أخر لم يكن يهتم بالمديع ، انما كان على تصوير حياة الشعراء وشخصياتهم وأهولهم وميولهم وطربهم وخمرهم وحدهم ، وقد بلغ الحد بعضهم أن أهملوا ما عرف به العرب من الحلة والوقار والارتفاع عن الدنيا، وأطلقوا الأسهم العنان في واللهو والجون .

قد دفع التقاء المنزعين واستغلال الجديد للقديم الاستغلال الحي الخصبة لي نشاط الملاحظات البلاغية نشاطا واسعا . إذ طفق الشعراء العباسيون في الموازنة بين معانيهم ومعاني القدامى ، وحاولوا أن يثبتوا تفوقهم أو على الأقل كن بينوا بلوغهم درجة الاقدميين ، وخير من يمثل هؤلاء بشار بن برد [20]، الذي يقول : مازلت لروي في بيت أمرئ القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف الباب

اذ شبه شيئين بشيئين، حتى صنعت:

[19] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 303
[20] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 304

إذ كان مثار النقع فوق رؤوستا واسيافنا، ليل تهاوى كواكبه

ولعل في هذا ، إشارة إلى أن الشاعر العباسي ، كان جاهدا على محاكاة الأقنعين في وسائلهم البلاغية من تشبيه وغيره ، وان كان يتميز كما يقول شوقي" بفكرة الفرق ولطف مسالكله إلى المعاني والأخيلة" ومن ذلك أيضا ، أن نجد بشارا يستمع إلى قول كثير :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة اذا غمروها بالاكف تلين

فيقول والله ولو جعلها عصا مخ أو عصا زيد ، لما أحسن ، فهو بهذا الوصف جعلها حافية خشنة، وقد أخذ بشار هذا المعنى وسواء تسوية جديدة ، في إحدى قصائده الغزلية و قال، الا قال كما قلت:

ودعا المحاجر من معد كان حديثها ثمر الجنان

واذا قامت لمشيتها كان عظامها من خيزران

وبذلك ازاح عن المعنى جفوته و خشونته

وفي مصائر الأدب أخبار عديدة تصور عناية الشعراء باختيار الألفاظ المناسبة و المعاني الملائمة ومن ذلك ما بروى أن رجلا انشد ابن هرمة بيته :

بالله ربك، ان دخلت فقل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب

قال : وقفا، ثم قال له لينك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى.[21]

وتحدث محاورات كثيرة ، بين الشعراء عندما يجتمعون في نوادي او مجالس يبدون فيها كثيرا من الملاحظات والأراء على المعاني من حيث غرابتها ذلك ما بروي عن أبى نواس الذي أنشد مسلما قوله في الصبوح ؟

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا واملة ديك الصباح

فقال له مسلم : قف عند هذا البيت ، لم املة ديك الصباح ، وهو يبشره فقال له ابو نواس ، فأنشدني انت ، فانشده مسلم:

فقال له أبو نواس ، ناقض ، ذكرت أنه راح، و الرواح لا يكون إلا بانتقال من (56) مكان إلى مكان، ثم قلت :)و أقام بين عزيمة وتجلد) فجعلته مقيما متنقلا ، وتشاغبا

– ومن الأمور التي كانوا يرفضونها ، حشد الألفاظ الغريبة ، ومن هؤلاء ابن مناذر ، الذي كان يسرف على نفسه في ذلك ، فقال له أبو العتاهية أنت خارج عن طبقة المحدثين ، فإذا كنت تشبهت بالعجاج ورؤية ، فما لحقتهما، ولا أنت في طريقهما وإن كنت تذهب مذهب المحدثين، فما صنعت شيئا ، أخبرني عن قولك :

ومن عاداك لاقي مرمريسا أخبرني عن المرمريس ما هو؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفا"

[21] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 305

– وقد كان أبو العتاهية ممن يختارون اللفظ السهل الخفيف المالوف، البعيد عن الجزالة و الفخامة والرصانة ، فانبرى له مسلم بن الوليد، يقول له : " والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :[22]

الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك

لبيك لن الملك لبيك

لقلت في اليوم عشرة ألاف بيت، ولكنني اقول:

موف على مهج في يوم ذي رهج كأنه اجل يسعى الى امل

– و الأمر في وقعه لهر سوى دوران حول مذهبين ، مذهب يعتد بقوة الرصف وفخامته وجزالته ، وهو مذهب جمهور الشعراء في لمح الرسمية ، من بشار ومعاصريه ، وهم الذين استمروا ما وجدوه عند القماء من تشبيهات واستعارات وكنايات وجناسات ومقابلات حتى إذا طهر مسلم بن الوليد جعل كل هذا جر ينجزء من جوهر الشعر و أطلق عليه لأول مرة "البديع.

ومذهب يرى اصحخابه، ومنهم أبو العتاهية ضرورة اقتراب الشعر من لغة عامة الناس حتى يمس جميع القلوب بقول أبو العتاهية والصوت نشان شعرا تكون كفاءة مما لا يخفى على جمهور النار من شعري ولا سيما اشعار التي في الزهد فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الأسعار ولا

[22] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 306

طلاب الفريب. وهو مذهب اشغف الناس به به الزهاد واصحاب الحديث والفقهاء والعامة، واعجب الأشياء إليهم ما فهموه.[23]

– ولم يكن الشعراء وكتاب وحدهم الذين يدرسون وجوه البيان والبلاغة فيما ينظمون ويؤلفون ، لكن كان إلى جانبهم طائفة اللغويين و النحويين وقد كانت عنايتهم منصبة على استنباط أصول اللغة العربية من حيث الاشتقاق والنحو، اضافة الى ذلك، كنوا يهتمون بتلقين الناشنة شينا غير قليل من البيان، بأني ذلك في القلب في معرض شرحهم لقواعد اللغة والنحو، ومن ذلك قول ابن المعتز متحدثا عن الخليل بن أحمد ورأيه في التجنيس ، يقول : قال الخليل: لجنس لكل ضرب من قتل والطير والعروض والنحو ومنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى في ويقول عن رقيه في المطابق قال الخليل رحمه الله– بقال مطابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد)(، وهذه من بدايات الملاحظات البلاغية من خلال دراسة القواعد اللغوية.

– ومن بعد إلى كتاب سيبويه الذي يقال له أخذ مادته من إملاءات الخليل، فإنه يجد تناوله لبعض القضايا الأسلوبية التي اهتم بها، فيما بع، علم المعاني، من من التقديم والتأخير والتعريف والتفكير والحذف، ويجد أيضا انه يعني بين الحين والأخر بعض مسائل البيان، وكذلك نجد عن الفراء المتوفي سنة 207 هـ ، في كتابه " معاني القران، فه عني فيه بشرح بعض آيات القرآن شرحا ، تحدث فيه عن التراكيب و تأويل العبارات عن التقديم والتأخير و الإيجاز والإطناب ومعاني بعض الأدوات اللغوية الاستفهام وغيرها، كما أشار إلى بعض الصور البقية من مثل التشبيه والاستعارة والكناية . ونجد

[23] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 307

أيضا أبا عبيدة معمر بن المثنى ان 208) في كتابه المشهور مجاز القرآن ، نجد أنه ينكر المجاز ، بل يقهم لك من العنوان نفسه ، لكن في حقيقة الأمر ، فإن كلمة المجاز عنده تعني دقة الدلالة للتعابير القرآنية المختلفة، وممن تنبه إلى ذلك من القدماء ابن تيمية، إذ يقول : أول من غرف أنه تكلم بلفظ المجاز ، أبو عبيدة معمر بن المثني في لم يكن بالمحار ما هو قسيم الحقيقة ، إنما عنى مجاز الاية ما يعبر به عن الأية و بمعني آخر ، على به تفسير الايات وتاويلها ويبين هذا المعني منذ فاتحة كتابه حيث يقول: قال الله عز ثناؤه :[24]" فإذا قرأناه فاتبع قرآنه" ومجازه: فاذا ألفناه شيئا ، فضممناه اليك ، فخذ به وضمه ليك ، وكذلك فإن أبا عبيدة ربما من الأوائل الذين تنبهوا إلى ظاهرة الالتفات، وإن لم يذكر المصطلح كما هو معروف عند البلاغين ، يقول : ومن مجاز ما جاءت مخاطبته ، مخاطبة الشاهد ثم ترك ، وحولت مخاطبته هذه إلى الغائب ، قال الله : " حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم" اي بكم.

– ولم يصلنا عن الأصمعي مؤلف في البلاغة ، لكن من جاء بعده أشار إلى أنه ألف في التجنيس ، يقول ابن المعتز التجنيس هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ، مجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل التي الف الأصمعي كتاب الأجناس علبها الأصمعي ، يقول ابن رشيق : ذكر الأصمعي المطابقة في الشعر، فقال : أصلها ، وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع.

اقترح مصطلح الالتفات في البلاغة ، ثم جعله ابن المعتز نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن نوع الإخبار إلى المخاطبة ، وما يندرج في هذا الإطار وهذا ما يصدق

[24] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 308

على الالتفات ، ونوع ينصرف فيه المتكلم الأصمعي من معنى كان بصدد التكلم فيه إلى معنى أخر وكذلك ربما عد أيضا أول من اهتدى إلى ما يسمى الإيغال " وان لم يذكر المصطلح صراحة

يقول التوزي : قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا أحتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : قال قول ذي الرمة ، حيث يقول:[25]

قف العيس في أطلال مية فاسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل .

ضفتم كلامه بالرداء قبل المسلسل ثم قال " المسلسل " فزاد شيئا بالمسلسل ويبدو أن الأصمعي ، إنما يقصد من صدر كلامه للتوزي، إلى ما أسماه ابن المعتز الإفراط في قدامة المبالغة

وإلى جانب اللغويين كانت طائفة المتكلمين والمعتزلة ؛ الذين كانوا يتوسلون الأساليب البليغة المختلفة لرد بعضهم حج ج بعض ، ونلاحظ منذ أول وهلة، أن المعتزلة مثلا، كانوا يطلبون معرفة ما عند الأم م الأجنبية من الأراء البلاغية، ومن ذلك ما أورده إلينا الجاحظ سائقا لطائفة من تعاريف تلك الامم يقول : قيل للفارسي :ما البلاغة قال : معرفة الفصل من الوصل ، وقيل اليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام و قيل للرومي: ما البلاغة؟ قال : حصن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل الهندي :

[25] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 309

يلاحظ أن المعتزلة . ما طلبوا اراء الأمد الأجنبية ، في البلاغة والبيان ، حها في تمثله وأعمالها ، لكن يبدو أنهم يريدون أن يقارنوا بين آرائهم واراء الأجانب ، في بلاغه الكلام ، كي يضعوا قواعد سليمة لبلاغتهم ، في الدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الديانات الأخري ، ولا شك أنهم يعرفون ما فد يقعون فيه من الأخطاء ، أن القوا بأنفسهم وعقولهم في أحضان البلاغات الأجنبية ، وبهذا يتبين لنا حذر الجاحظ أثناء عرضه اطراف الحديث من آراء الأجانب في البلاغة ، ي لا يتردد أبدا في الفاتها في سيول من اراء العرب البلاغية وقوانينهم البيانية ، إضافة إلى بعض ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة ، وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أسوق، نقلا عن الجاحظ في بيانه ، تعريف العثابي من افهمك حاجتك من غير إعادة ولا حبسة ولا أستعانة ، فهو بليغ فان أردت اللسان الذي يروق الألسنة و يفوق كل خطيب . قإظهار ما غمض من الحق و تصوير الباطل في صورة الحق

وقال له السائل: قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الإستعانة ؟ قال أما شراء اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هناه ، وبا هذا و يا هيه ، وأسمع مني واستمع إلي وأفهم علني ، أو لست تفهم ، أو لست تعقل، فهذا كله زوما أشبه عي وفيما وهكذا فان من يمعن النظر في ملاحظات القدامى حول معاني الشعر والنثر وتراكيسبهما، لا محالة ، يخلص إلى أنها كان الأصل في نشوء البلاغة العربية التي نمت فيما بعد وتفرعت وأتت أكلها[26].

المبحث الثالث: البلاغة قبل عبد القادر الجرجاني

المطلب الأول: دلائل الاعجاز

[26] قدامة بن جعفر ، نفس المرجع السابق ص 311

اذا كانت فكرة النظم قد اهتدى عبد القاهر اليها ، ورأى البلاغة تدور عليها ، فان هذه الفكرة لها فروع كثيرة تنطوي تحتها ، من مسائل التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، و التعريف والتنكير ، وغير ذلك من الطرق التي تصاغ عليها العبارة .

كما أن المسائل التي رآها عدا البلاغة : من تشبيه ، ومجاز ، واستعارة ، وكناية ، كثر الحديث عنها قبل عبد القاهر.

ونحن الآن على أن ندرس بقدر الامكان جهود العلماء قبله في هذه النواحي البلاغية ؛ لندرك قيمة الرجل ومقدار البلاغة العربية.[27]

وقد وصف عبد القاهر حال البلاغة قبل عصره ، وفي عصره ، فقال : « واعلم أنك لا ترى في الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بديئا وأخيرا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان ، أما البديء فهو أنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم الا واذا تأملت ا كلام الأولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الأشارة ، والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا ؛ فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جت أو كته رمزا روحيا و كناية وتعريضا واعاء إلى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وأدق النظر ، ومن يرجع من طبعه الى ألمعيئة يقوي معها على الغامض ، ويصل بها الى لخفي حتى كان بسلا حراما أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه الافصاح بها حرام ، وذكرها الا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ . نقاب لها، وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن وأما الأخير فهو أثا لم تر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في ويكلم به بعضهم بعضا

[27] عبد القادر الجرجاني،دلائل الاعجاز، ط 01 ، دار اليقين للنشر والتوزيع،1991 ص 88

من غير أن يعرفوا له معني ، ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عنه بيان له وتفسير الذي علم الفصاحة ، فانك ترى طبقات من الناس يتداولون غير أن يعرفوا لها شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما الأولين ، ويتدارسوه .

و أقرب من ذلك أنك تراهم يقولون اذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام : ان ذلك يكون بجزالة اللفظ ؛ واذا تكلموا في زيادة نظم على نظم : أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة ، وعلى وجه دون وجه ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل ، ربما كان عبد القاهر مغاليا في دعواه ، ولكنه مما لا شك فيه أن لعبد القاهر أثرا عميقا في البلاغة العربية سنبين بعضه في ايجاز.

ولسنا نشك في أنه أفاد من سابقيه ، وتأثر بهم ، ونقل عنهم ، واقتبس منهم ، ولكن ذلك كله كما يفعله الباحث ذو الشخصية القوية يستفيد من جهود سابقيه ، وتفتح أمامه أبواب للدراسة لم يصل اليها من سبقه ، فيضيف بذلك جهودا صالحة ، ولا يقف عندما وقف عنده السابقون .[28]

ويطول بى وجه البحث اذا أنا حاولت الاستقصاء ، وحسبى أن أعرض بعض الجهود السابقة في بعض الأبواب لنتبين منها جهود عبد القاهر.

المطلب الثاني: التقديم والتأخير

ففي باب التقديم والتأخير تجد سيبويه يقول :

[28] عبد القادر الجرجاني، نفس المرجع السابق ، ص 89

يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعني ، وان كانا جميعا بهانهم ويعنيانهم ؛ ولم يذكر في ذلك مثالا ويجى صاحب نقد النثر فيأتي بباب فية التقديم والتأخير

ويعقد أحمد بن فارس في كتابه : « الصاحبي ، بابا للتقديم والتأخير يبدؤه بقوله : من سنن العرب تقديم الكلام ، وهو في المعنى مؤخر ، وتأخيره وهو في المعنى مقدم ، قول ذي الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينكب

أراد : ما بال عينك ينسكب منها الماء

وقد جاء مثل ذلك في القرآن ، قال ال له جل ثناؤه : د ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب تاويله وال له أعلم : ولو ترى اذ فزعوا وأخذوا من مكان قرب فلا فوت ، لأن لا فوت بكون بعد الاخذ.

ويمضي ابن فارس موردا بعض آيات من القرآن مبينا تأويلها على هذا النسق الذي أوردناه .

وان شئت أن تعرف جهود عبد القاهر في هذا الباب فوازن بين ذلك وما تفتح لعبد القاهر من ألوان البلاغة في التقديم والتأخير مما أوردنا موجزه في هذا الكتاب .[29]

ويعقد صاحب قد النثر بابا للحذف لا يزيد فيه على أن العرب تستعمله للإيجاز والاختصار والاكتفاء اذا كان المخاطب عالا بمرادها فيه، وذلك كقوله عز وجل :

[29] عبد القادر الجرجاني، نفس المرجع السابق ، ص 90

« واذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ، لعلكم ترحمون » وسكت عن تمام الكلام ؛ لعلم) تقدير ذلك : د واذا قيل . . . استكبروا ، وتمادوا ، وعتوا) وعلى هذا المنوال يجري في عرض آيتين وبيتين من الشعر ، ويختم الفصل بأن هذا الحذف كثير في كلام العرب ، واذا مر بك عرفته ان شاء الله .

وعلى هذا النسق ايضا أحمد بن فارس في كتابه : وعلى هذا النسق أيضا يجري أحمد بن فارس في كتابه :

« الصاحبي » فبعد أن ذكر أن الحذف بعض الأمثلة من كلام العرب ومن القرآن.

واذا أردت أن تعرف مجهود عبد القاهر أيضا فوازن بين هذا القدر الضئيل وما جاء به عبد القاهر ، وما شعر به أنه كالسحر ، اذ ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر

وتحدث الجاحظ عن الفصل والوصل ، عندما سئل الفارسى عن البلاغة ، فقال : هي معرفة الفصل من الوصل) . ووقف عند هذا الحد، ولم بين مواضع الفصل ، ولامواضع الوصل؛ بل لم يزد على هذه الجملة التي رواها .[30]

[30] عبد القادر الجرجاني، نفس المرجع السابق ، ص 91

الفصل الثاني: علوم البلاغة عند الإمام عبد القادر الجرجاني

تمهيد

يعتبر البعض الجرجاني مؤسس علم البلاغة، أو أحد أبرز مؤسسيها، ولا تزال كتابات الجرجاني، مثل «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» وغيرهما، تستقطب اهتمام طيف واسع من المثقفين والباحثين، وربما يعود ذلك إلى تركيز الجرجاني في كثير من كتاباته على منطق اللغة، أو عقلنتها، فضلاً عن ميله الواضح لأولوية المعنى على اللفظ، يقول في «أسرار البلاغة»: «الألفاظ خَدَمُ المعاني والمصرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستهَا، المستحقَّةَ طاعتها، فمن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْح أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن، ولهذه الحالة كان كلامُ المتقدِّمين الذين تركوا فَضْل العناية بالسجع، ولَزِموا سجِيَّةَ الطبع، أمكنَ في العقول، وأبعَد من القَلَقِ، وأَوضحَ للمراد، وأفضل عند ذوي التَّحصيلِ، وأسلمَ من التفاوتِ، وأَكْشَفَ عن الأغراض»، هنا دفاع عن المعنى، وتبرير لاتجاه الأقدمين نحو اللفظ، حيث الفطرة والرغبة في الوضوح والمباشرة في المعالجة، بعكس العالم الذي يعيش في عصر بلغت فيه الحضارة أوجّها وبالتالي لابد من تغليب المعنى والبحث عن العقل في كل الأشياء، حتى اللغة نفسها.

المبحث الأول: الإمام عبد القادر الجرجاني حياته ومؤلفاته

المطلب الأول: تعريف عبد القادر الجرجاني

هو أبو بكر بن عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، إمام النحوي و أحد علماء الكلام على مذهب الأشاعرة، فارسي الأصل، جرجاني الدار، ولد وعاش في جرجان، و هي مدينة مشهورة بين طبرستان و خراسان ببلاد فارس، في مطلع القرن الخامس للهجرة ولم يفارقها حتى توفي سنة 471 هـ. 1

نشأ في أسرة ميسورة الحال، ولم يتمكن من السفر للدراسة خارج جرجان نتيجة لفقره، على الرغم من ظهور ولعه المبكر بالعلم والنحو، و لقد عوضه الله عن ذلك بعالمين كبيرين كنا يعيشان في جرجان هما:

أبو الحسن بن الحسن بن عبد الوارث الفارسي النحوي نزيل جرجان والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، قاضي جرجان من قبل الصاحب بن عباد.[31]

أخذه للعام:

أخذ العلم عن أبي الحسن محمد الفارسي، أبن أخت الشيخ أبي علي الفارسي كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني، و قد قرأ كتابه"الوساطة بين المتنبي وخصومه".

إو لى ذلك يشير ياقوت فيقول:

[31] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ط 3، القاهرة، دار المدني بجدة. 1990 ، ص 18

"وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرأ عليه، واغترق من بحره وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به، و شمخ أنفه بالانتماء إليه".

كما تتلمذ عبد القاهر على أثار الشيو خ والعلماء الذين أنجبتهم العربية، فنحن نواه ينقل عن سبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي، و ابن قتيبة و قدامة بن جعفر والقاضي الجرجاني وأبي الهلالا لعسكري وعبد الرحمان بن عيسى الهمداني الوزجاج[32]

المطلب الثاني:حياته

عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، لا ندرى من أمر أسرته شيئا ، سوى أنها أسرة فارسية) وأغلب الظن أنها كانت رقيقة الحال ، لم تجد فضلة من المال تنفقها على ابنها ؛ كى يستطيع أن يتنقل في البلاد بأخذ العلم من أعلام فضل في مدينته لا يبرحها .

ولم ث عن الأسرة بتسجيل اليوم الذي ولد فيه طفلها ، فضل بذا اليوم مجهولا لدى مؤرخيهة ويبدو أن الأسرة لم تكن لها أصالة في جاه فلم بعرفه تاريخ من سلسلة نسبه سوى جده محمد ولكن يظهر أن الطفل نشأ ولوعا بالعلم محبا ل لثقافة قبل على الكتب يلتهمها ب وبخاصة كتب النحو والأدب . وريا في اتجاهه إلى هذين اللونين ناشئا من اقتنائه أثر أستاذيه [33]:

نزيل جرجان ، وأبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى، فعلى الرغم من أن عبد القاهر لم يخرج عن جرجان في طلب العلم) ، أرسل الله إليه أبا الحسين هذا ، وكان قد أخذ الشيخ أبي على الفارمى

[32] عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ط 3، القاهرة، دار المدني بجدة. 1990 ، ص 19
[33] محي الدين ديب، علوم البلاغة – البديع و البيان والمعاني، ط 1 المؤسسة الحداثية للكتاب-لبنان- طرابلس.2003 ، ص 33

صاحب كتاب د الايضاح في النحو . وأغلب الظن أن أبا الحسين قرا كتاب خاله لتلميذه ، فقد رأينا عبد القاهر يعنى بهذا الكتاب عناية بالغة ، ويضع عليه شرحا كبيرا يبلغ زهاء ثلاثين مجلدا ، وسمي شرحه : المغنى .

وأما أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني فقد كان أديا ممتازا ، له عدة تصانيف ، منها الكتاب المشهور : بالوساطة بين المتنبي وخصومه , قال ياقوت : « وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرأ عليه ، واعترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنه بالات نماء الية . واني أشك فيما رواه ياقوت من أنه قرأ على القاضي الجرجاني شيئا ، لأن القاضي توفي س نة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، فمتى يكون عبد القاهر قد أخذ عنها وعبد القاهر قد توفي س نة احدى القاضي الجرجاني وسبعين وأربعمائة ، فاذا كان قد اخذ القاضي الجرجاني.

فلابد أن يكون عبد القادر قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاما على الأقل ، حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضى ؛ ومعنى ذلك أن عبد القاهر ولد حول سنة وسبعين وثلاغالة ، فيكون عند وفاته قد أرهى على تسعين عاما ، ولم يشر أحد من مؤرخيه الى أنه طعن في السن الى مثل هذا الحد يا مما يرجح أن أخد عبد القاهر عن القاضي كان آخذا كتبه لا شخصه وتتلمذ عبد القاهر بعد ذلك على الكتب ، يقرؤها يفكر واع ، ويقف مترا أمام نصوصها ، شأن الطالب الذي يعتمد على تفه في القراءة والتحصيل ، وقد رأيناه في كتبه ينقل عن سيبويه [34]، والجاحظ ، وأبي على الفارسي ، وابن قتيبة ، و قدامة ، والآمدي ، والقاضي الجرجائى ، لأبي هلال العسكري ( ) وأبي

[34]محي الدين ديب ، نفس المرجع السابق، ص 34

أحمد العسكرية ، وقرا كتاب الألفاظ الكتابة ، العبد الرحمن بن عيسى الهمدانى ورجع إلى كتاب الشعر ، وقل عن الزجاج كما أن له مختارات من شعر المتنبي والبحتري وابي تمام سوف نتحدث عنها وذلك يدلنا على أن الرجل ثقفه لقافة سوية أدبية الى جانب ثقافيه الدينية ، وقد كان شافعي المذهب متكلما على طريقة الأشعري ، ولكن يظهر أن المادة التي غلبت عليه كانت النحو ، فكان يلقب بالنحوي » وعدة من اكابر النحويين ، وأن له فضيلة تامة في النحو ، وعلى معالى النحو بنى نظرته في البلاغة والبيان و فشهر بذلك ، وذكره له المؤرخون .

وكان معظم انتاجه مقسما بين هاتين الناحيتين : النحو ، والأدب كما سترى = وتصدر الرجل بجرجان ، وذاع صيته في الأفاق ، وشدت ، قصيدة التلاميذ من جميع الأرجاء ، يقرون عليه كتبه ، وأخذونها عنه ، وظل مقيما بجرجان ، يفيد الراحلين اليه ، والوافدين عليه) ؛ وكان من تلاميذه المذكورين الواردين الى العراق والتمارين بغداد : على بن زيد المسيحيه وقد تثقل على يديه جماعة كثيرة ، وأخذوا عنه ما أخده هو من عبد القاهر). كما كان من هؤلاء التلاميذ ابو نصر أحمد بن محمد الشمري الذي أخذ عنه كتاب المقتصد في النحو [35]ومع هذا العلم العزير ، والانتاج القيم ، يبدو أن عبد القاهر كان مقرا عليه في الرزق ، ولم يكن يعيش في حياة سعيدة يرضاها ؛ ولسنا ندرى مورد رزق عبد القاهر ، ولعله هبات بعض الأثرياء الذين ألف لهم كتبه شعر ينبض بالسخط على حظ العلماء في هذه الحياة .

[35] محي الدين ديب ، نفس المرجع السابق، ص 35

ولعله كان يرى أن الناس لا يصعدون إلى المناصب التي تكفل لهم رغد العيش الا على حساب العزة والأنفة ويقول

هذا زمان ليس فيه النذالة والجهالة

لم يرق فيه صاعد الا وسلمه النذالة

لانه كان لا يرضيه أن يغير من علبيعته ، أو أن يذل نفسه تقبيل اپنى قوم يراهم كلابا حينا ، وترابا حينا آخر ؛ وهو الذي يقرأ الملق والنفاق ، ويعلن في صراحة أنه لن يغير من نفسه شيئا ومما دفعه إلى هذه النقمة أنه جرب الاتصال من في يدهم زمام الأمور ، مع احتفاظه كرامته وعزة نفسه ، فلم تقد التجربة ، ولم يشر الاتصال ، وقد اتخذ شعره وسيلة الى هذا .

عبد القاهر كانت لديه رغبة في أن يكون أحد أساتذة مدرسته النظامية التي تم انشاؤها ببغداد سنة تسع وخمسين وأربعماة ،أو أنه كان يريد أن يأوى إلى كنف الوزير ، ويجد عنده الحياة الهاتئة السعيدة ، كما وجدها في رحابه كثير من العلماء لست أدرى الهدف الذي قصد اليه عبد القاهر ، وما بقى من قصيدة مله يصف الوزير بالكرم الذي لا عيب على معتفيه ، وبالخلق الصاق ، وبالهمة العالية ، بالسعادة في هذه الحياة ولم يرو لنا المؤرخون نتيجة مدح عبد القاهر لنظام الملك .[36]

وكل الذي تعرفه ان عبد القاهر لم يفارق مدينة جرجان إلى ان توفي بها أما صفات عبد القاهر فيعدون منها تدينه الشديد و ورعه روى السلفي ان لما دخل عليه ، وهو في الصلاة فاعذ ما وجد ،

[36] محي الدين ديب ، نفس المرجع السابق، ص 38

وهو ينظر ، ولم يقطع صلاته قناعته وسكونه ويروى صاحب د أنباه الرواة)(أنه كان ضيق المعطن لا يستوفي الكلام على ما يذكره ، مع قدرته على ذلك . ولمن تشك في هذه الرواية.

هل كان هذا الضيق الذي تحدث عنه صاحب كتاب « الانباه » يبدو في حديثه وهو يلقي درسه على تلاميذه ، أو كان يبدو في كتبه التي ألفها 7 أما ظهور هذا الضيق في دروسه ، فانه لا يتفق مع شهرته العلمية ، واقبال الطلبة عليه من جميع الأرجاء ، وربما ضاقت نفسه أحيانا لتبرمه بالحياة ؛ فظهر ذلك عليه ، وحكم به بعض من رآه ، فظن ذلك خلقا فيه ، وما هو من أخلاقه ، كيف وقد لحظ فيه أهل عصره الهدوء والسكون ، وجعلوا ذلك من سهان كما ذكرنا .

كما لم يظهر هذا الضيق فيما كتبه عبد القاهر ، بل انه ليعرض الفكرة عرضا هادئا ، ويقلب الأمر على وجوهه ، حتى يصل إلى النتيجة التي يهدف اليها ، وسوف نرى عند عرض كتبه و آرائه .

وقد ذكرنا من قبل أنه كان يكره النفاق .

وقد أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه ، ولم تحل المعاصرة بين صاحب دمية القصر وين شديد الاعجاب بعبد القاهر معاصره ، فتسمعه يقول : اتفقت على امامته الألسنة ، وتجملت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة ، وأثنى عليه طيب العناصر ، وثنية به عقود الناصر ؛ فهو فرد" في علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير ؛ وقد أفادني الشيخ أبو عامر مما ألقاه بحر الفضل على لسانه[37] ، ما نطق لسان الدهر باستحسانه ولست فيما فاتنى من كريم مشاهدته ، واشتيار لذيذ الشهد من

[37] محي الدين ديب ، نفس المرجع السابق، ص 39

ذاكرته ، أيام أسدتني الأيام من بدنو الدار ، ولف أطياب الحيمتين قرب الجوار ، الا كمن ودع الماء والخضرة ، الشعثة والغترة . . .)(وتدرع فصاحب الدمية يحمل لعبد القاهر اجلالا عميقا ، وبأسف على أنه لم يلتق به عندما كان قريبا من جرجان.

ولم يذكر مؤرخوه شيئا عن حياته الخاصة ، فلا ندرى مى له صاحبة ، وكان له ولد أم أنه عاش ل لعلم ، وأخص قسه الدرس ، والتحصيل ، والتعليم ، والانتاج ليس فيما بين يدي ما يشير إلى ذلك . وصمت المؤرخين مطبق كذلك حول أسرته ؛ ورعا حالت الحياة الرقيقة التي كان يعيشها بين اتخاذ الصاحبة والولد .

وأغلب الظن أن ليس في حياته من غرب بذكر ، وأنه لوى أيامه بين افادة طلابه ، وقراءة آثار السابقين من كتبه القيمة .

وقضى عبد القاهر عمره في مدينة جرجان ، لم يفارقها طول حياته ، وهي مدينة وصفها ياقوت الرومي بقوله : « مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان و خراسان ، ... وهي أكبر مدينة بنواحيها ، وهي أقل ندي ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقارا ، وأكثر مروءة ويسارا ... وأهلها يأخذون أنفسهم بالتانى والأخلاق المحمودة . . . وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ الله حمزة بن يزيد السهلي . . .[38]

واخيرا توفي شيخ البلاغيين "عبد القاهر الجرجاني" سنة 471 هـ.

[38] محي الدين ديب ، نفس المرجع السابق، ص 41

المطلب الثالث: انجازاته وبعض مؤلفاته

يعتبر عبد القاهر الجرجاني مؤسس البلاغة ، أو أحد المؤسسين لهذا العلم ويعد كتاباه "دلائل الإعجاز" و " أسرارا البلاغة"، من أهم الكتب التي ألفت في هذا المجال ولقد ألفها لبيان إعجاز القرآن الكريم و فضله على النصوص الأخرى من شعر و نثر وقد قيل عنه " كان ورعا، قانعا، عالما ذا نسك و دين".

كما ألف العديد من الكتب و له رسالة في إعجاز القرآن بعنوان "الرسالة الشافعية في إعجاز القرآن" حققها مع رسالتين أخرتين للشافعي والزماني في نفس الكتاب كل من محمد خلق الله و محمد زغلول سلام، وهي من أفضل ما كتب في المجاز.[39]

و ترك عبد القادر آثار مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن.

مؤلفاته

هذه الكتب "التعريفات " وهو معجم يتضمن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الفنون والعلوم في عصره، و هذا المعجم من أوائل المعاجم الاصطلاحية في التراث العربي.

كما له عدة مؤلفات في النحو و الصرف نذكر منها:

" الإيضاح في النحو"، "المعنى"، "المقتصد"، " التكملة" و" الجمل" وفي الشعر

[39] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ، 65

نذكر:

المختار من دواوين المتنبي والبحتري و أبو تمام.

أما في الأدب وعلوم القرآن نذكر:

"إعجاز القرآن"، "دلائل الإعجاز"، " الرسالة الشافعية في الإعجاز"، "أسرار البلاغة"، وق د أورد في كتابيه الأخير ين معظم آرائه في علوم البلاغة العربية.

و من مؤلفاته الأخرى:

"رسالة في تقسيم العلوم"، "خطب العلوم"، شرح كتاب الجعميني في علم الهيئة وشرح التذكرة النصيرية" و هي رسالة الطومي، و "تحقيق الكليات".[40]

المبحث الثاني: جهوده في تطوير علوم البلاغة

المطلب الاول: المعاني

قرر عبد القاهر الجرجاني أن بلاغة الكلام متصلة بما يُستَفادُ من المعاني لا ما يُسم ع م ن الألفاظ. وقرر أن القانون الذي تعم ل بموجب ه الألفاظ ف ي دلالته ا على المعاني هو قانون النحو. فاجتمع له من تصوره لوظيفة النحو وجدلية الألفاظ والمعان ي م ا أسس ب ه لنظري ة النظم .

[40] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ، 67

ولك ن هذ هـ النظرية ، الت ي بسطه ا ف ي "دلائل الإعجاز"، كانت في الحقيقة، إضافة إلى قيمتها العلمية النظرية، تأسيسا لعلم بلاغي عظيم هو "علم المعاني".[41]

يقول أحمد بدوي:

"لم يكن هدف عبد القاهر ي وم تكلم على النظم، وأن البلاغة تعود إليه، وأن النظم ليس سوى توخي معاني النحو التي تعقد الصلة بين الكلم _ لم يكن يفكر إلا في البرهنة على هذه الفكرة، وتجليتها، ودفع الشبه عنها، ولم يدرْ بخلده أنه يضع في البلاغة العربية أساس علم جديد عُرف بعده ب"علم المعاني".

فقد رأ ى م ن جا ء بع د عب د القاه ر أ ن المسائ ل الت ي أثاره ا ف ي كتاب "دلائل الإعجاز" أمور يتصل بعضها ببعض، وترتبط كلها بالمعاني التي تُستفاد من الجملة

عندما توضع على نحو خاص، من تقديم أو تأخير، وذكر أو حذف، وتعريف أوتنكير، وتوكيد أو عدم توكيد، إلى غير ذلك من ألوان الصياغة؛ فربطوا بين هذهالأبواب، وسموها: "علم المعاني"."

وإنه ليكفي أن تنظر فيما قاله عبد القاهر، وهو يعرّف النظمَ معلقا إياه بقوانين النحو، ثم تنظر فيما استقر عليه علم المعاني من جملة المباحث، كي يظهر لكصدقُ نسبةِ وضعِ علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني، وإن لم يسمّ هذا العلمَ ويدّعي

تأسيسه. يقول:

[41] شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط 10 ، د.ت. ص 170

"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامَك الوضعَ الذي يقتضيه علمُ النحو، وتعمَلَ على قوانينه وأصوله، وتعرفَ مناهجَه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظَ الرسومَ التي رُسمت لك فلا تُخلّ بشيء منها، وذلك أ نّا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل بابٍ وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيدٌ منطلقٌ، وزيد ينطلقُ، وينطلق زيدٌ، ومنطلقٌ زيد، وزيدٌ المنطلقُ، والمنطلقُ زيد، وزيدٌ هو المنطلق، وزيد هو منطلقٌ، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرجْ أخرجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرجْ فأنا خارجٌ، وأنا خارجٌ إن خرجتَ،[42] وأنا

إنْ خرجتَ خارجٌ، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيدٌ مسرعا، وجاءني يُسرعُ، وجاءني وهو مسرعٌ، أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرعَ، وجاءني وقد أسرعَ، فيعرف لكل من ذلك موضعَه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاصِّ معناه، نحو: أن يجيء ب"ما" في نفي الحال، وب"لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وب"أن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، و ب"إذا" فيما علم أنه كائن. وينظر في الجمل التي تُسرَدُ فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقُّه الوصلُ موضعَ الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضعَ أو من موضعِ أم، وموضعَ لكنْ من موضع بلْ. ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانَه. ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"

[42] شوقي ضيف ، نفقس المرجع السابق ص 171

فقد أجمل عبد القاهر، في هذه القطعة التي كتبها في تعريف النظم، مباحث علم المعاني، حتى إنه يمكن أن يقالَ: إنّ "هذه المباحث هي نفس المباحث التي انتهى إليها علم المعاني عند الزمخشري والرازي والسكاكي، وغاية ما هنالك أن عبد القاهر لم يشر هنا إلى صور الطلب، على أنه سيفصل الحديث فيما بعدُ عن الاستفهام." [43]

وقد يُقال: إن هذه المباحث كانت مطروقةً قبل عبد القاهر، فليس له سوى فضلِ تجميعها في كتابٍ، وتوضيحا بالتمثيل، وتحليل نماذجها بتفصيل. ولكن الحقيقة غير ذلك؛ إذ لم يكن جميع ما خاض فيه عبد القاهر مطروقا. ولم يكن ما طُرق منه على وجه تتضح به صورتُه وتتأكّد مزيته البلاغية. فلم يكن عبد القاهر إذاً مجردَ جامعِ أشتات، ومفصِّلِ إجمال، بل كان واضعَ علمٍ، بكل ما يعنيه الوضع من جمع وترتيب، وتعليل وتمثيل، وضبط وتقنين. يقول شوقي ضيف:

"وحقا تناثرت في كتابات من سبقوه بعض ملاحظات وبعض مصطلحات، غير أن هذا ينبغي أن لا يضللنا فنغمطه حقه ونزعم أنه إنما جمع ملاحظات سابقيه، فالحق أنه ابتكر هذه النظرية، ولا يكفي أن يكون هناك من تحدّثوا عن باب الفصل والوصل وباب الإيجاز والإطناب وباب الإنشاء والخبر فالحديثُ عن ذلك كله في شكل ملاحظات جزئية تنثَر هنا وهناك شيء، وضمها إلى نظرية متشعبة شيء آخر:

نظرية نشأ عنها فيما بعد علم مستقل من علوم البلاغة هو علم المعاني الذي وضع عبد القاهر أصولَه وصوّر فصوله وحدودَها وشُعَبها تصويرا دقيقا. وإذا كان قد فاته فرعٌ أو شعبةٌ كبعض شُعَب باب

[43] شوقي ضيف ، نفقس المرجع السابق ص 172

الإنشاء فبِحُكْم أنه كان مبتدئا في وضع نظريته، ومع أن من جاءوا بعده أضافوا إليها بعض إضافات فإن كتاباته فيها ظلت المنارة الهادية بأضوائها الكثيرة."[44]

ولا تنحصر فضيلةُ عبد القاهر في أنه وضع أصول علم المعاني وصوّر فصولَه، بل تتعداها إلى أنه فعل ذلك بمنهج يجمع بين الذوق والعلم، وأسلوب يجمع بين الوضوح والسهولة والدقة، فلم تكن أبحاثه جافة ثقيلة، ولا أسلوبُه متكلّفا معقدا، خلافا لما صارت عليه أبحاث البلاغة عند بعض من جاء بعده. "ولذلك كله كان عبد القاهر قريب التذوّق في عصرنا الحاضر؛ لأسلوبه الواضح من ناحية، ولارتكازه على النفس الإنسانية في أحكامه من ناحية ثانية، ولاعتماده في هذه الأحكام على النصوص التي بين يديه، ولحسن عرضه لما يشعر به من الجمال إزاء الأدب: شعره، ونثره."

المطلب الثاني: البيان

في "دلائل الإعجاز" كان الغرض هو إثبات أنّ البلاغةَ في المعاني وصُوَرِها لا الألفاظ وأجراسها؛ فكان الحديثُ المقتضب عن السجع والجناس، والوافي عن الكناية والمجاز والتمثيل والاستعارة، لإثبات هذه الفكرة وحسب: فكرةِ أنّ الألفاظَ، وإن كانت هي الوسيلةَ لأداء المعاني، وتوهّمَ الناس أنها هي مصدر الفصاحة والبلاغة، ليست سوى تابعٍ لا قيمةَ له في ذاته، ولا تصرّفَ له في نفسه؛ وإنما هي المعاني تأمره فيقول، فإن أحسنَ فبإحسان أدائه للمعاني ووفائه بأغراضها ولطائفها، وإن أساء فلا معنى للإساءة سوى أن المعاني لم تبرز مزاياها، ولم تنكشف خفاياها، ولم تستوفِ أغراضها.

[44] شوقي ضيف ، نفقس المرجع السابق ص 173

خلاصةُ ما ذكره عبد القاهر بشأن هذه العناصر اللفظية، التي صارت من بعد أركانا لعلم البيان، أن الأصل الذي تنبني عليه، والقصدَ الذي ترتقي إليه، إنما هو المعنى وليس اللفظ. فالأصل في الكناية إرادتُك إثباتَ معنى من المعاني بذكر دليله وبرهانه، بحيثُ يُفهَمُ ذلك المعنى "من طريق المعقول دون طريق اللفظ." [45]إذ "ليس من لفظ الشعر عرفتَ أن ابن هرمة أراد بقوله: (ولا أبتاعُ إلا قريبةَ الأجلِ) التمدّحَ بأنه مضياف، ولكنك عرفته بالنظر اللطيف، وبأن علمت أنه لا معنى للتمدّح بظاهر ما

يدل عليه اللفظ من قربِ أجلِ ما يشتريه، فطلبت له تأويلا، فعلمت أنه أراد أن يشتري ما يشتريه للأضياف، فإذا اشترى شاة أو بعيرا كان قد اشترى ما قد دنا أجله لأنه يُذبَح ويُنحَر من قريب." 2

والأصل في الاستعارة إرادتك إثبات معنى للشيء بلفظٍ ليس من عادته وأصل دلالته في اللغة إثباتُه له، وإنما هو نقل معناه إلى معنى ذلك الشيء ليقوم مقامَه، وينقل من بعض صفاته ودلالاته، ما تريد إثباتَه من الصفات والدلالات لذلك الشيء؛ فتكون قد وضعتَ معنى بدل معنى لا لفظا مكان لفظ، أو تكون قد أعرت اللفظَ

ولكن ليس إلا بعد إعارتك المعنى[46]. إذ لا يُعقل في قولك رأيتُ أسدا، تريد رجلا كالأسد هيبةً وشجاعة، أن تكون استعملتَ لفظَ "أسد" بدل لفظِ "رجل"، وجعلته في معناه على القطعِ والبتِّ وبإطلاق. "وإلا فإن كان ليس ههنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء فمن أين يجب _ليت شعري_ أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة؟

[45] عبد العاطي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان ، الخفاجي، دار الجيل، بيروت، 1993 ص 255
[46] عبد العاطي علام، نفس المرجع السابق ص 256

ويكون قولنا: رأيتُ أسداً مزيةً على قولنا: رأيتُ شبيها بالأسد؟ وقد علمنا أنه محالٌ أن يتغير الشيء في نفسه بأن ينقل إليه اسم قد وُضع لغيره.."

والأصل في التمثيل شبيهٌ بالأصل في الكناية والاستعارة، وهو إرادتك المعنى بعبارة لا تدل عليه دلالة صريحة تُدرك من ظاهر اللفظ، بل دلالة ضمنية تُدرَك من طريق العقل والقياس بضرب المثل؛ والمثل يُضرب للمعنى لا للفظ

ومما يلفت الانتباه في دراسة عبد القاهر لهذه العناصر البيانية في دلائل الإعجاز، أنه ينسبها إلى اللفظ لا المعنى ولا النظم؛ إذ الكلام عنده لفظٌ ومعنىً ونظمٌ يوحِّدُ بينهما. يقول في ذلك:

"اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تُعزى المزيةُ والحسنُ فيه إلى اللفظ وقسم يُعزى ذلك فيه إلى النظم. فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكلُّ ما كان فيه على الجملة مجازٌ واتساعٌ وعُدولٌ باللفظ عن الظاهر، فما من ضربٍ من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والم زية."

وقد يتوهّم من لا يدقق أن عبد القاهر يناقض بهذا الرأي ما ظل يلحّ عليه من نفي تعلق البلاغ ة باللفظ، فها هـ و يعلق بعضها ب هـ ويعزوه إليه . ولكنّ تدقيق النظر وإحسان الفهم ينفيان عن الناقد الوقوعَ في هذا التناقض، ويثبتان أن نظريته في النظم متماسكةٌ مستقيمة، وإنما هو اضطراب في المصطلح ليس غير.

إن الاستعارةَ ــوما إليهاــ لفظٌ، بالنظر إلى أنها تصرّفٌ في اللغة باستعمال لفظٍ بدل آخرَ للدلالة على معنى معيّن، وأنها وسيلة لفظية لأداء المعنى. ولكنها مع ذلك معنى في الأصل والقصد كما سبق أن بينّا؛ لأنك تستعير معنى اللفظ لا اللفظَ ذاته.[47]

ثم إن هذه الوسيلة اللغوية لا تضطلع، حين يُعمَد إلى استعمالها دون اهتمام ببراعة النظم، إلا بجزء يسير من بلاغة القول ولطائف التصوير، وبراعة النظم هي التي تتولى ترقية مستوى الحسن والمزية واللطف في كل تعبير مجازي. لذلك يقسم عبد القاهر البلاغة بين اللفظ والنظم، بالنظر إلى قيمة هذه الوسائل البيانية المجازية في ذاتها، بالنظر إلى ما فيها من العُدول عن الظاهر والإغراب في المعنى، ولكنه لا يرى أن هذه الوسائل تعمل عملها بعيدا عن النظم؛ فهي في الواقع لا تتشكل استعارة أو كناية أو تمثيلا حتى تتشكل نظما يقتضيه المعنى، فإذا تشكّلت أمكنك أن تميّز بين حسنٍ يُعزى إليها بعدّها استعارة أو كناية ــأي عُدولاــ دون اعتبار النظم، وحسنٍ هو في العبارة التي حوتها مردُّه إلى طريقة النظم وعمل النحو. وقد مثّل عبد القاهر لهذا الحسن المقسّم بين الاستعارة والنظم بقوله تعالى: ((وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)) حيثُ مزية استعارةِ الاشتعال لإسراع الشيب في الرأس لا غبار عليها، غير أن براعة النظم هي التي منحت العبارة القرآنية ذلك الحسنَ الباهر، وتلك الفخامةَ والروعة، ولو قيل: اشتعل شيبُ الرأس لم تجدْ ما وجدتَ من المزية والسحر وال روعة حين نقابل بين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، فيما يتصل بهذه المباحث البيانية، نجد فرقا بيّنا بين الكتابين في الهدف والمنهج والرؤية. إن عبد القاهر لا ينكر، في "دلائل الإعجاز"، القيمة البلاغية لهذه العناصر المجازية، ولكنه لا

[47] عبد العاطي علام ، نفس المرجع السابق ص 258

يبالغ في الاحتفاء بها والإعلاء من شأنها، بل يجتهد في عزو ما لها من الحسن والخلابة إلى النظم،[48] ولكنه في "أسرار البلاغة" يرمي بكل إعجابه واحتفائه، وتقديره وثنائه، على هذه العناصر التي عدّها لفظيةً في "دلائل الإعجاز". ويكفي، لكي تُدرك مقدار هذا الحتفاء، أن تقرأ قوله في مدح التشبيه والتمثيل والاستعارة: إن "جل محاسن الكلام، إن لم نقل كلها، متفرعة عنها، وراجعة إليها. وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرّفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها" 1، وقوله في شأن الاستعارة المفيدة بعد ثناء كثير: "وإذا تأملتَ أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة، ومعها يستحق وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تُعيرها حلاها، وتقصر عن أن تنازعها مداها، وصادفتها نجوما هي بدرها، وروضا هي زهرها، وعرائس ما لم تُعِرْها حليها فهي عواطل، وكواعب ما لم تحسنها فليس لها في الحسن حظ كامل؛ فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تَزِنْها، وتجد التشبيهات على الجملة غيرَ مُعجِبةٍ ما لم تكنها. إن شئت أرتْك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها الظنون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانيةً لا تنالها إلا الظنون"

في "أسرار البلاغة" ينتقل عبد القاهر إلى مصدر آخر للبلاغة والبراعة والبيان. إلى المصدر الذي لم يوفِّه حقَّه، مختارا أو مضطرا، في "دلائل الإعجاز". وأقول ينتقل لأني أرجح مع محمد خلف الله وأحمد بدوي وشوقي ضيف أن عبد القاهر كتب "دلائل الإعجاز" أوّلا ثم كتب "أسرار البلاغة" خلافا

[48] عبد العاطي علام ، نفس المرجع السابق ص 259

لما يذهب إليه محمود شاكر ومحمد العمري وقد يكون من الحجج التي يمكن أن تُضاف إلى حججهم أن الرجل كان كغيره من رجال البلاغة والكلام مشغولا بالنظر في الوجه الذي يُستدَلُّ به على إعجاز القرآن، فلما تمّ له ذلك في "دلائل الإعجاز"، التفت إلى ما كان نفى تعلق الإعجاز به على أهميته ومزيته، وهو الاستعارة والتشبيه والتمثيل، فأراد أن يخصها بكتاب يوفيها حقها، ويستجلي من أسرارها ما كان مشغولا عن استجلائه في "الدلائل"، مدفوعا بملكته العالية في التذوّق، وقدرته المتميزة على بناء النظرية والاحتجاج لها بالجدل الهادئ والتحليل العميق والتمثيل الموفَّق، وهمته الشامخة التي لا ترضى له إلا أن يكون لعلْم البلاغة فارسَه الفذّ وعالمه المتفوّق.[49]

وتسميته الكتابَ "أسرارَ البلاغة" دليلٌ على إيمانه بالقيمة البلاغية العظمى لفنون المجاز، والتفاتِه إلى مصدر الخلابة الآخر، بعد براعة النظم، وهو صناعة التصوير وفن الإغراب. ولم يسمّ الرجل ما ورد في كتابه هذا ب"علم البيان" على كثرة ذكره للبيان في "الأسرار" كما في "الدلائل"، وإنما أُطلِق هذا الاسم بعده. ولعل الذين أطلقوا هذا الاسم نظروا إلى أن المسائل التي وردت في الكتاب "تُعدّ أمهات مسائل البلاغة؛ وقد أشاد بها البلغاء، منذ أن تنبهوا إلى محاسن القول، ولما كانت البلاغة والفصاحة

والبيان كلمات تكاد تكون مترادفة في ذلك الحين سمّوا هذه المسائل بعلم البيان، كأنهم قالوا: "علم البلاغة"."

وقد كانت هذه المسائل جميعها محل نظر ودرس، وإشادةٍ واحتفاء، من قِبل النقاد والبلاغيين قبل عبد القاهر؛ فهو إذاً لم يخترعها ولم يسبق إليها. ولكنه، مع ذلك، يصحّ أن يُقال: إنه هو واضع "علم

[49] عبد العاطي علام ، نفس المرجع السابق ص 261

البيان"؛ لأن هؤلاء البلاغيين بحثوا هذه الفصول، "ولكنهم لم يحرروها ولم يبحثوا دقائقها على نحو ما بحثها وحرّرها عبد القاهر في كتابه "أسرارَ البلاغة"؛ فقد ميّز أقسامها وفروعها وحلّل أمثلتها تحليلا بارعا في نحو أربعمائة صحيفة." فلم تجتمع مسائل هذا العلم كما اجتمعت في كتابه.

ولم تستوفِ حقها من التقسيم والتفريع، ومن التحليل والتمثيل، ومن تأصيل الأصول واستنباط القوانين، كما استوفته في هذا الكتاب. ولم يتأثر علم البلاغة، فينبثق منه علم البيان، وينضج وتستقر مسائله وتنتظم أصوله وفصوله، كما تأثر ب"أسرار البلاغة".[50]

وعلاوة عل ى ذلك، فق د أت ى عب د القاه ر ف ي كتاب ه هذا بكثي ر م ن الجدي د في

التقسيم وفي الاصطلاح؛ فقد قسم الاستعارة باعتبار بلاغتها قسمين: مفيدة وغير مفيدة، وقسم المفيدة باعتبار طريقة حصولها قسمين، شرحهما وسُميا فيما بعد مكنيةً وتصريحية. كما قسمها باعتبار وجه الشبه قسمين: حسية وعقلية. وهذا إجمال لأقسام الاستعارة عنده، لم أتتبع فيه جملة ما أورده الناقد من أضرب الاستعارة.

وقد قسم المجاز قسمين أيضا: عقلي ولغوي. وقسم اللغوي قسمين: استعارة ومجاز مرسل. كما قسم التشبيه والتمثيل أقساما عديدة، تتباين في طرق الدلالة، وتتفاوت في مقدار المزية والبلاغة. ولم يتناول الكناية لسبق تناوله إياها في "دلائل الإعجاز". وإنه لإجمالٌ لا يفي بالدلالة على عظمة ما جاء به عبد القاهر في "أسرار البلاغة"، وأنه يستحق فعلا أن يُعدّ هو واضع علم البيان؛ ولكن يكفي أن يكون هذا السِّفرُ العظيم م وجودا بين أيدي القراء والباحثين يتداولونه، وأن "التراثيين" منهم

[50] عبد العاطي علام ، نفس المرجع السابق ص 262

و"الحداثيين" 1 يبالغون في الاحتفاء به وتبجيله. وقد كان أعظمَ فضائله عند هؤلاء احتفاؤُه بالغرابة والغموض والتخييل وبُعد التشبيه، وأعظمَها عند أولئك رزانتُه العلمية، ورهافته الذوقية، وقدرته المتميزة على عمق التحليل ودقة الاستنباط، والتزامُه البحثَ المخلصَ عن أسرار البلاغة دون مبالغةٍ أو تكلف؛ ولا بلاغةَ حيث يكون التعقيدُ والإبهام وغياب القرينةِ ووجهِ الشبه؛ وهو ما يفترق به عبد القاهر عن غلاة "الحداثة".[51]

ليس صحيحا _في رأينا_ ما ذهب إليه محمد العمري من أن عبد القاهر انتقل من الغرابة الشعرية إلى المناسبة التداولية . ومن نصرة الغموض والتخييل إلى نصرة الوضوح والصدق والصحة تصالحا مع المذهب التقليدي ؛ فإن مباحث "أسرار البلاغة" _وهو في رأينا متأخر عن "دلائل الإعجاز"_ لا تتناقض مع مباحث "الدلائل"، بل تختلف معها في الهدف وحسب. وإن نزعة عبد القاهر في الكتابين واحدة، هي الكشف عن أسرار البلاغة في الشعر والنثر، وكيف تتفاوت منازلها حتى تبلغ درجة الإعجاز. ولئن انتصر في "الأسرار" للغرابة فإن ذلك لم يكن على حساب المناسبة التداولية. ولئن انتصر للغموض والتخييل أحيانا كثيرة فإن ذلك لم يكن على حساب الإبلاغ والبيان والصدق والصحة. ويكفي أن تقرأ موقفه من مقولتيْ "خير الشعر أصدقه" و"خير الشعر أكذبه" 4 كي يتبيّن لك أنه رجل رزين منصف ذواقة منفتح على ألوان الجمال جميعها؛ وهي ألوان تتسع للصدق القوي كما تتسع للتخييل الذكي.

[51] عبد العاطي علام ، نفس المرجع السابق ص 263

المطلب الثالث: البديع

سعى عبد القاهرالجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) الى معايير تطبيقية لتمييز فنون البديع الاصيلة عن التزويق اللفظي والصناعة الشكلية مقررا بذلك اهمية هذه الفنون ومحددا سبيل تحقيقها وتجنب الافراط فيها , فقال متحدثا عن البديع عامة وفن التجنيس والسجع خاصة :((ان ما يعطي التجنيس من الفضيلة امر لم يتم الا بنصرة المعنى اذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن , ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .....)) .[52]

ويذكر عبد القاهر الجرجاني اربعة (معايير) لبيان دور فنون البديع ووضع اليد على عاقبة التفريط فيها :

اولاً : ملاءمة فن البديع للمعنى وانسجامه معه والتحاقه به .

ثانياً : صدوره عن الطبع وانبثاقه عن السليقة والإمساك به اذا ما جاء عن تصنع وتكلف .

ثالثاً : توظيفه من اجل الإفهام والإبانة .

رابعاً : تجنبه للإكثار والتراكم بلا طائل وبلا هدف .

بدر الدين بن مالك الاندلسي الدمشقي (ت 686 هـ) وعلم البديع يرى البلاغيون ان بدرالدين بن مالك الاندلسي أصلاً الدمشقي داراً اول من جعل البديع مستقلا بنفسه باطلاقه علم البديع في

[52] علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 1426 ه- 2006 م، ص 63

كتابه (المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع) اذ هيأ لان تصبح البلاغة متضمنة لثلاثة علوم هي البيان والمعاني والبديع , حين لخص القسم الثالث من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي (ت626 هـ) ملتزما بقسمة السكاكي لفنون البديع الى (المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية).[53]

الخطيب القزويني (ت 739 هـ) وعلم البديع حدّ الخطيب القزويني علم البديع في كتابه (الإيضاح) بقوله :((علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))

وفي ضوء هذا التعريف , فُصل علم البديع عن علوم البلاغة الاخرى فصلا تاماً لتستقر البلاغة الى علومها الثلاثة : علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع .

وصار علم البيان يعرف بـ (بلاغة التعبير) , وعلم المعاني بـ (بلاغة الاقناع والتأثير) في حين ان علم البديع يعرف بـ (بلاغة التحسين) .

[53] علي بن عبد العزيز الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 64

المبحث الثالث: علم المعاني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال مؤلفاته

المطلب الاول: دلائل الاعجاز

برهن عبد القاهر في رسالته الشافية برهنة تاريخية على أن العربيه قد عبروا عن الاتيان بمثل هذا القرآن (١) , ولم يعجبه براى من قال الهم عجزوا لأن الله صرفهم عن أن يأتوا مثله ، بيتهم وبين بلاغة كانوا قادرين عليها قبل أن ينزل القرآن) . بل رأى أن القائل بهذا الرأي « معاند بعده الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزا ، والثبات عليه من بعد لزوم الراالحجة جلدا جوع ، ومن وضع نفسه ف هذه المنزلة كان قد باعدها من الانسانية أما وجه اعجاز القرآن عند عبد القاهر فبلاغته نصب ، وتكسن هذه البلاغة في نظم القرآن على هذا الأسلوب الذي و به في التقاطه منفردة عن هذا النظم الذي جاء به (ولا في أن عبارة القرآن قد جاءت على ضرب من الوزن يعجز .[54]

لقلق عن أن يأتوا مثل)(، ولا في الجريان والسهولة وسلامته من أن تلتقي فيه حروف تثقل على اللسان ، ولا لأوزان الكلمات ، ولا للفواصل في أواخر الآيات) ولا لما في القرآن من استعارة و كناية ومجاز)(وبرهن عبد القاهر على رأيه بأن الله سبحانه قال :" قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله" ، وقال :" قل : فأتوا بعشر سور مثله " وقال : « بسورة من مثله » ب فهل » يجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه بأن يتحدى العرب الى أن يعارضوا القرآن مثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى اذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله :

[54] محي الدين ديب، علوم البلاغة – البديع و البيان والمعاني، ط 1 المؤسسة الحداثية للكتاب-لبنان- طرابلس.2001 ، ص 321

ولابد من دلا « و لأنهم ان قالوا : يجوز أبطلوا التحدى ، من حيث ان التحدي ، كما لايخفى ، مطالبته بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالاتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلومات الطالب ... » ؛ « لأنه لا يصح وصف الانسان بأنه قد عجز عن شيء، حتى يريد ذلك الشيء ، ويقصد ليه ، ثم لا يتأتى له ، وليس يتصور أن يقصد الى شيء لا سلمه ، وأن تكون منه ارادة لأمر لم يعلمه في جلة ولا تفصيل).

ثم أن هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفا قد تحدد بالقرآن ، وأمرا لم يوجد في غيره ، ولم يعرفه قبل نزوله ، وان كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الحلم المفردة ؛ لأن تقدير كونه فيها يؤدى إلى المحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في مذاقة حروفها ، وأصدقائها ، أوصاف لم تكن فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت في ألفها بهيئات وصفات بسرعه السامعون عليها ان كانت متلوة في القرآن ، ولا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن).

ولا يجوز أن يكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تحدد في معنى الحمد ، والرب ، ومعنى العالمين، والملك ، واليوم ، والدين، وهكذا ، وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا ما لو كان هنا شيء أبعد من المحال وأشنع لكان اياه (ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيب الحركات والسكنات ، [55]حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على

[55] محي الدين ديب، نفس المرجع السابق، ص322

تواليها في زنة كلمات القرآن ... و لأنه يخرج الى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة في: «اثا أعطيناك الجماهر ؛ فصل لربك وجاهر والطاحنات طحنا«.

« وكذلك الحكم أن زعم زاعم أن الوصف الذي تحدوا له هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل ، كالذي اه في القرآن لأنه أيضا ليس بأكثر من التشمويل على مراعاة

الوزن، وانما التواصل في الأي كالقوافي في الشعر ، وقد اقتدارهم على القوافي كيف هو ، فلو لم يكن التحدي الا الى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشياء القوافي ، لم يورم ذلك ، ولم يتعذر عليهم ، وقد خيل الى بعضهم – ان كات الحكاية صحيحة شيء من هذا ، حتى وضع على ما زعموا فصول الكلام ، أواخرها أواخر الآي ، مثل : يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك وهكذا السبيل أن زعم زاعم أن الوصف المعجز هو الجريان والسهولة ، ثم يعنى بذلك سلامته من أن تلتقي فيه حروف تثقل على اللسان ، لأنه ليس بذلك يكون الكلام كلاما ولا هو بالذي يتناهى امره ان عنده في الفضيلة الى أن يكون الأصل ، والى أن يكون الم مول عليه في المفاضلة بين كلام وكلام ، كما به كان الشاعر مفلقا ، والخطيب مصقعا ، والكاتب بلينا .[56]

[56] محي الدين ديب، نفس المرجع السابق، ص323

المطلب الثاني: أسرار البلاغة

تكلم الباحثون قبل عبد القاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وأدركوا جملةَ الوجوه التي يتأسس عليها إعجاز القرآن، وجملةَ العناصر التي تتشكل منها شعرية الشعر وبلاغة القول؛ غير أن ذلك كان بعضُه إجمالا يُعوزه التفصيل، وبعضُه إرسالا يُعوزه التعليل، وبعضُه تنظيرا يُعوزه التمثيل والتحليل.

فلما جاء عبد القاهر جمع كلَّ ما أوتيه من موهبة الذوق، وطاقة الإبداع، وملَكة التعليل، ومقدرة التنظيم والترتيب، ومهارة الاستدلال والتحليل، إلى ما ورثه من رصيد النظرات البلاغية والنظريات النقدية، فأعمل موهبته ومقدرته في تقويم ذلك الرصيد وتهذيبه وإغنائه، وأضاف إليه شحنةً من روحه وشعلةً من ذكائه؛ فإذا بالبلاغة العربية تظهر خلقا آخر ما يزال يثير الإعجاب ويدعو إلى الاعتزاز، ويهدي طريق الباحثين إلى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.[57]

حصر الإعجاز في بلاغة النظم

كانت دلائل الإعجاز قبل عبد القاهر في أمور شتى، منها ما هو لغوي بلاغي ومنها ما ليس كذلك؛ كترك المعارضة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة. وكانت البلاغة القرآنية المعجزة قبل عبد القاهر في أمور شتى، كفصاح ة الألفاظ، وصحة المعاني، وجمال الفواصل، وحسن التشبيه والاستعارة، زيادةً على تلاؤم النسج وبديع النظم. وكانت الآراء تتجاذب القولَ في هذه الوجوه

[57] عبد المالك بومنجل ، تأصيل البلاغة ، بحوث نظرية وتطبيقية في اصول البلاغة العربي ، منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده جامعة محمد لمين دباغين-سطيف 2 ص 67

فتتقاطع وتتفارق؛ فلما جاء عبد القاهر كان له رأي متميز في هذه المسألة، حصر به إعجاز القرآن في لغته وبلاغته دون ما هو خارج اللغة والبلاغة، وحصر إعجاز بلاغته في بديع نظمه وروعة تأليفه دون ما سواه من عناصر بلاغة الكلام وأسبابه. يقول أحمد بدوي في هذا الشأن:

"لقد عدّ العلماء قبله البلاغة من بين وجوه إعجاز القرآن، ولكن عبد القاهر من بينهم جعلها الوجه الوحيد للإعجاز، لا يرى وجها سواه.

وعندما ذكر العلماء قبله البلاغة مضوا يُعدِّدون أبوابها، ويذكرون فنونها من تشبيه، واستعارة وجناس وغيرها، بينما رأى عبد القاهر أن البلاغة هي حسن دلالة الكلام على معناه، في صورة بارعة من التعبير، وأن جميع ما ذكر من ألوان البلاغة يرجع جماله إلى حسن الدلالة على المعنى في صياغة بارعة." [58]

كان لعبد القاهر في ذلك حجة مقنعة؛ فقد آمن أن الإعجاز ينبغي أن يكون بوجه يتحقق في جميع سور القرآن لا بعض من سوره وآياته. ورأى أن الوجوه التي ذكرها العلماء قبله –عدا بديع النظم وتلاؤم النسج– هي وجوه متفرقة في مواضع معينة من القرآن، تكثر وتقلّ، ولكنها لا تعم القرآنَ كلَّه؛ إذ من وجوه الإعجاز خارجَ البلاغة الإخبارُ الصاد ق بالغيب، وهذ ا ف ي آيات معدود ة لا ف ي الكتاب كله ، وم ن وجوه الإعجاز البلاغي التي ذكرها العلماء الاستعارة ، "ولا يمكن أن تُجعل الاستعارة الأصلَ في الإعجاز وأن يقصد إليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة، في مواضع من السور الطوال مخصوصة. وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون في

[58] عبد المالك بومنجل ، نفس المرجع السابق ص ، 68

النظم والتأليف لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم."

حزم عبد القاهر رأيه على أن الإعجاز شأن بياني بلاغي وليس شأنا متعلقا بمضمونه المعنوي، فأيّد مقولة الجاحظ التي تجعل شأن البلاغة والشعرية في الألفاظ لا في المعاني، أي في الأسلوب لا في الموضوع، وفي الصياغ ة لا في المادة . وعارض معارضة شديدة مذهب الذين يقدّ مون الكلام بمعناه بمقولته المعروفة "أن سبيل الكلام

سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه"

وبلغ من إنكاره هذا المذهب أن رأى أن الخطأ فيه عظيم، وأن القول به "يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدي وهو لا يشعر" 2؛ وذلك أن الذي يوصف به القرآن، ويتُّخذ منه عنوانا على إعجازه، هو البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، و"لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى: غير وصف الكلام بحسن الدلالة، وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب... ولا جهة لاستعمال هذه الخصال: غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية" [59]

[59] عبد المالك بومنجل ، نفس المرجع السابق ص ، 69

الإعجاز، إذاً، بياني. والبيان ظاهرة نظمية. وجوهر النظم هو براعة التصرف في اللفظ بم ا يفضي إل ى حس ن الدلالة ، وتبرج الصورة ، وقوة التأثير . فهو ، إذاً ، ليس ف ي اللفظ المفرد، ولا في المعنى المجرد، ولكنه في الطريق الذي يوصل اللفظ إلى المعنى، وفي الصورة التي تتشكل بها المادة التي يراد إبلاغها إلى المتلقي. هو في اللفظ؛ إذا قصدنا باللفظ الشكل والنسج والصورة. وهو في المعنى؛ إذا قصدنا بالمعنى ما يُدرك وما يحس وما يُتصور من تركيب الألفاظ وترتيبها على نحو فيه مزية وخصوصية. وهو في النظم؛ إذا آثرنا الدقة، وذهبنا مع عبد القاهر في اصطلاحه ونظريته: "أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظه ا ومواقعها ، وف ي مضرب كلّ مثَل ، ومساق ك ل خبر ، وصورة ك ل عظة وتنبيه وإعلام، وت ذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان. وبهرهم

أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها، ولفظة يُنكر شانها أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم –ولو حك بيافوخه السماء– موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدّعي وتقول، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول" وقد كانت خطوة حصر الإعجاز في بلاغة النظم هي التي أفضت بعبد القاهر إلى أن يؤسس نظرية النظم، وأن يضيف، في معرض تحليلها والتدليل عليها والدفاع عنها والإرشاد إليها، كثيرا من النظرات البلاغية والنظريات النقدية، ذات الأثر الواضح في تطور علم البلاغة والنقد الأدبي.[60]

[60] عبد المالك بومنجل ، نفس المرجع السابق ص ، 71

الارتقاء بالنحو إلى البلاغة

من الإضافات البارزة، والبصمات القوية، التي رسمها عبد القاهر الجرجاني على وجه الدرس اللغوي والبلاغي العربي، الارتقاء بالنحو من كونه درسا لقواعد الإعراب، وقوانين السلامة اللغوية، إلى كونه أساسا في بلاغة الكلام، وعلما لطرق الدلالة على المعاني، وسرا في براعة النظم وحسن الدلالة وتفاضل مراتب الفصاحة والبلاغة؛ فهو لا يحتاج من متعلِّمه والمتعامل به أو معه مجرد العلم به والحفظ لقواعده وقوانينه، بل يحتاج معها إلى الذوق والفطنة اللذين بهما يعمل الناقد ليُدرك أسرار البلاغة ولطائف التعبير ودقائق النظم.

إن صميم نظرية النظم لدى عبد القاهر هو أن النحو ليس مجرد العلم باللغة وإقامة الإعراب، وإنما هو لطائف شتى تتضمن سر الإبداع، وأن روح الشعر وسر البلاغة ليس في اللفظ أو المعنى أو التشبيه والبديع والاستعارة، وإنما هو في النحو الذي يختاره المتكلم لإفادة المعنى المراد وإصابة الغرض المتوخى. يقول:

"واعلم أنْ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخلّ بشيء منها." [61]

[61] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402 ، 1981، ص 299

هذه هي المقدمة الأساس لنظرية النظم: النظم ترتيب الكلام ترتيبا نحويا سليما موافقا لقوانين علم النحو وأصوله. ولكن أيُّ نحوٍ، وأية أصول وقوانين؟ ليس المقصود بالنحو هنا علم الإعراب: العلم الذي يُعلم به أن حق المفعول النصبُ وحقَّ الفاعل الرفعُ وما إلى ذلك؛ فذلك عند القاهر جزء من النحو وليس النحو كلَّه. هو الجزء الذي لا يُلتفت إليه في مضمار البلاغة، بحكم لزومه في أدنى طبقات الكلام، وقيام الوفاء به على مجرد التعلم والحفظ دون التذوق والروية والفكر. إن النحو الذي

يقصده هنا هو نمط آخر، ومستوى أرقى، وعلمٌ أشرفُ وأجدرُ بأن يُتعلم ويُتمرّن عليه؛ لأنه هو روح النظم وسر البلاغة، ما دامت البلاغة هي حسن الدلالة على المعنى المراد، وما دامت حقيقة النحو أنه النحو الذي تؤدى به المعاني خير أداء، فتبلغ غرضها بأحسن وجوه الإبلاغ.

هـ و نحو من مستوى آخر غير مستوى اجتناب الوقوعِ في اللحن ، أ و اجتناب الإتيانِ باللفظة "على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي وعلى خلاف ما ثبتت به الرواية عن العرب." 1 هو نحو ينطوي على دقائق وأسرار طريق العلم بها الرويةُ والفكر، وعلى لطائف طريق الوصول إليها عمل العقل، وعلى خصائصِ معانٍ تزيد وتنقص في الدلالة والطرافة، وتعلو وتنزل في الشرف والفضيلة، حتى يكون من شأن ذلك أن يكون "السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضا، وأن يبعد الشأوُ في ذلك، وتمتدّ الغاية، ويعلو المرتقى ويعز المطلب، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز وإلى أن يخرج من طوق البشر." [62]

[62] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 300

لقد ارتقى عبد القاهر بالنحو إلى مستوى البلاغة. لم تعد فضيلة النحو محصورة في كون سلامة التعبير مرهونة بصحته أو فساده، بل صار يُنظر إلى النحو على أنه سبب فيما يعرض للنظم من صحة أو فساد، وما يتصف به من فضل ومزية. يقول في ذلك:

" فلا ترى كلاما قد وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وُصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه."

النحو عند عبد القاهر نحوان، أولهما نحو لغوي وثانيهما نحو بلاغي.

والصواب عنده صوابان، أولهما صواب عاديّ لا تتعلق به الفضيلة والثاني صواب امتيازي تحصل به المزية وينتج سحر البلاغة وشرف البيان. يقول في التمييز بين هذين الصوابين:

"لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيغ الإعراب فنعتدّ بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور تُدرك بالفكَر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ، وهذا بابٌ ينبغي أن تراعيه، وأن تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعة فيه في لفظه، مما هي منه في نظمه." [63]

[63] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 301

ومن فضائل عبد القاهر أنه لا يرسل الحكم إرسالا بغير دليل، وإجمالا بغير تفصيل. بل يجتهد في تنويع الأدلة وتقديم الأمثلة بالتحليل المقنع والتعليل الدقيق.

فهو يذكر نماذج للشعر الموصوف بالفساد والتعقيد فيعزو سبب ذلك إلى النحو، ثم يواجه القارئ بنماذج للشعر الموصوف بالجودة فيقول:

"...وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك م ن أج ل النظم خصوصا دون غيره مم ا يُستحسن ل هـ الشع ر أ و غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غيره مما لا يدخل

في النظم وتأملْه، فإذ ا رأيتَك ق د ارتحتَ واهتززت واستحسنت فانظ ر إل ى حركات

الأَرْيَحية ممَّ كانت وعند ماذا ظهرت، فإنك ترى عيانا أن الذي قلت لك كما قلت،

أعمد إلى قول البحتري:

بلونا ضرائب من قد نرى فما إنْ وجدنا لفتحٍ ضريبا فما إنْ وجدنا لفتحٍ ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثاتُ عزما وشيكا ورأيا صليبا عزما وشيكا ورأيا صليبا

تنقّلَ في خُلُقَيْ سؤدَدٍ سماحا مرَجّى ويأسا مَ هيبا سماحا مرَجّى ويأسا مَ هيبا

فكالسيفِ إن جئتَه صارخا وكالبحر إن جئته مُ ستثيبا وكالبحر إن جئته مُ ستثيبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا فعُدْ فانظر في نفسك[64]، واستقصِ في النظر ، فإنك تعل م ضرورة أنْ ليس إ لا أ ن قدّ م وأخّر ، وعرّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة. أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله "هو المرء أبدت له الحادثات" ثم قوله: "تنقّل في خلقيْ سؤدد" بتنكير السؤدد وإضافة الخُلُقيْن إليه؛ ثم قوله "فكالسيف" وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ لأن المعنى لا محالة (فهو كالسيف)، ثم تكريره الكاف في قوله

"وكالبحر" ثم أن قرَنَ إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثالٍ أُخرجَ من الآخر، وذلك قوله "صارخا" هناك ومستثيبا ههنا"

ويمضي الجرجاني بعد هذا التحليل البديع في الاستقصاء والمتابعة والاستزادة من

الأمثلة، ليتناول قول إبراهيم بن العباس:

فلو إذ نبا دهرٌ وأَنكرَ صاحبٌ وسُلِّط أعداءٌ وغاب نصيرُ وسُلِّط أعداءٌ وغاب نصيرُ

تكون على الأهواز داري بنجوةٍ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمورُ ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمورُ

ويكشف ما فيه من لطائف التقديم في "إذ نبا" والتنكير في عدد من الألفاظ، وينبه على الفرق الواسع بين قوله ذاك وأن يقول: (فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر) أو (إذ نبا الدهر، وأنكرتُ صاحبا) وقس على ذلك. ويخلص عبد القاهر بعد هذا العرض الممهِّد إلى توضيح مفهوم

[64] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 302

النظم وتحديد موضع المزية فيه حتى لا يُظنّ أن وجوه النحو وفروقه من تقديم وتأخير وإضافة وحذف تُحمَد لذاتها،[65] أو أن وجوه البلاغة من كناية ومجاز وتشبيه واستعارة تكفي بأنفسها دون طريقة نظمها وموضع استعمالها، فيعقد فصلا في أن "المزايا في النظم بحسب المعاني والأغراض التي تُؤَمّ"

فيقول منبّها:

"ليس إذ راقك التنكير في "سؤدد" من قوله "تنقّل في خلقيْ سؤدد"، وفي "دهر" من قوله "فلو إذ نبا دهرٌ" فإنه يجب أن يروقك أبدا وفي كل شيء... بل ليس من فضل ومزي ة إ لا بحسب الموضع ، وبحسب المعن ى الذي تريد والغرض الذي تؤم، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش؛ فكما أنكترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياه ا إل ى م ا ل م يتهدَّ إلي ه صاحبه فجا ء نقش ه م ن أج ل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه وقد يخطر في البال أن البلاغة النحوية لا تتعيّن إلا حيث يغيب البديع أو التخييل، فلا يحضر غير الكلام العاري المباشر؛ ولكن عبد القاهر ينبهنا على أن نظريته في النظم، القائم على توخي معاني النحو، عامة في جميع الكلام، وأن النحو هو الذي يعطي لكل عناصر التعبير ألوانها، ويبث فيها أسباب سحرها وطرافتها.

وهكذا، ففي قول ابن المعتز:

إني على إشفاف عيني من العدى لتجمحُ مني نظرةٌ ثم أُط رِقُ

[65] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 303

ليست الطلاوة والظرف لأن جعل الظرف يجمح، بل "لأن قال في أول البيت "وإني" حتى دخل اللام في قوله "لتجمح"، ثم قوله "مني"، ثم لأن قال "نظرة" ولم يقل النظر مثلا، ثم لمكان "ثم" في قوله "ثم أطرق"، وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم إنّ وخبرها بقوله "على إشفاق عيني من العدى"." وفي قول الشاعر:

سالت عليه شعاب الحيّ حين دعا أنصارَه بوجوهٍ كالدنانيرِ

"ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها إنما تم لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازرته لها." ولو غيّرت النظم فقلت: سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، لذهب الحسن والحلاوة، وعدمت النشوة والأريحية .[66]

وفي قول المتنبي:

غصبَ الدهرَ والملوكَ عليها فبناها في وجنة الدهر خالا

ليس الحسن في أن جعل للدهر وجنة وجعل البنية خالا في الوجنة، فإنه لو قال: هي خالٌ في وجنة الدهر، لما حصل هذا الحسن. وإنما "موضع الأعجوبة في أخرج الكلام مخرجه الذي ترى، وان أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله "فبناها"."

وكذلك في قوله:

[66] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 305

وقيّدتُ نفسي في ذراكَ مَحبةً ومن وجد الإحسانَ قيدا تقيَّدا

ليست الاستعارة في أصلها إلا مبتذلة معروفة مفادها في لغة العامة (قد قيّدني بكثرة إحسان ه إليّ وجمي ل فعل ه مع ي حت ى صارت نفس ي لا تطاوعن ي عل ى الخروج من عنده)، "وإنما كان ما ترى من الحسن بالمسلك الذي سلك في النظم والتأليف."

هذه النماذج وتحاليلها سمحت للجرجاني أن يقرر في ثقة: "إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته." 2، ويهوّن بعد ذلك شأن الذين لا يرون من موجب للمزية في قوله تعالى ((وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً)) سوى الاستعارة، لأن الشرف والروع ة ههن ا ليس ت لمجرد الاستعارة ، ولك ن لأ ن يُسلك بالكلام هذا المسلك في إسناد الفعل إلى الرأس وهو غير الفاعل الحقيقي بل سببه، وفي إخراج الفاعل الحقيقي (الشيب) مخرج المنصوب على التمييز وإذ تقرر ذلك، فقد تعيّن إعادةُ النظر في كل الأساليب الاستعارية، لمعرفة موضع الطرافة والغرابة فيها. وعلى هذا ليست الغرابة في قوله الشاعر: "وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ"، "لأن جعل المطيَّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل "سال" فعلا للأباطح، ثم عدّاه بالباء، ثم بأن أدخل الأعناق في البيت فقال: "بأعناق المطيّ" ولم يقل بالمطيّ، ولو قال: سالت المطيُّ في الأباطح، لم يكن شيئا." [67]

وإنه لمكسب عظيم للبلاغة وللنحو معا أن يتفطن عبد القاهر إلى هذه الأسرار واللطائف التي تدخل على الكلام العاديّ العاري من البديع والتخييل فتكسبه شرفا وامتيازا، وتدخل على الكلام

[67] عبد القاهر الجرجاني، نفس المرجع السابق ص ، 306

الموشح بالبديع والخيال فتكون هي الصانعة في بديعه طرافة تروق وتطرب، وفي خياله غرابة تثير وتُعجب. ولم يكن الأمر كذلك قبل عبد القاهر ، ب ل كان ت مزاي ا النح و محصورة ف ي أبوا ب محدودة ، وكان ت عناي ة النقاد والبلاغيين متجهة إلى عناصر البديع والتخييل في ذاتها دون النظر في عمل النحو فيها ومحلها من النظم.

خاتمة

خاتمة:

ترجع شهرة الجرجاني إلى كتاباته في البلاغة، فهو يعتبر مؤسس علم البلاغة، أو أحد المؤسسين لهذا العلم، ويعد كتاباه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفها الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وقد قيل عنه: كان ورعًا قانعًا، عالمًا، ذا نسك ودين.

وترك الجرجاني آثاراً مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن، من ذلك ديوان في الشعر وكتب عدة في النحو والصرف منها أهمها: كتاب ''الإيضاح في النحو'' وكتاب ''الجمل''، أما في الأدب وعلوم القرآن فكان له ''إعجاز القرآن'' و''الرسالة الشافية في الإعجاز'' ، هذا بالإضافة إلى ''دلائل الإعجاز'' و''أسرار البلاغة'' الذي أورد فيهما معظم آرائه في علوم البلاغة العربية.

إنَّ عبد القاهر الجرجاني يضَع منهجًا للفكر البلاغي بعامَّة والفكر اللغوي بخاصَّة من خلال نظريَّة النظم في كتابه "دلائل الإعجاز"، وقد توصَّلت إلى نتائج عدَّة من خِلال البحث في كتابه، وكذا من خِلال كتب عن نظريَّته والنتائج هي:

1- من خِلال تعريف عبدالقاهر الجرجاني للبلاغة، وكذا من خِلال تعريف عُلَماء البلاغة من قبله لها نتبيَّن علاقة علم الدلالة- وهو فرعٌ من فروع علم اللغة- بعلم البلاغة، فإذا كانت البلاغة هي "إصابة المعنى والقصد إلى الحجَّة مع الإيجاز"، والدلالة تعني: العلم الذي يدرس علاقة الرموز بالأشياء التي تنطَبِق عليها، فاللغة في المقام الأوَّل: وسيلةٌ يُعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم ومقاصدهم، وعلم

الدلالة يعتَنِي في المقام الأوَّل بالدلالة من خِلال السِّياقات المختلفة، وهذا يدخُل فيه الحال والمقام، وهو ما يَتوافَق مع تعريف البلاغة بأنها مُطابَقة الكلام لمقتَضَى الحال مع فصاحته.

2- إنَّ عبدالقاهر الجرجاني من خِلال نظريَّة النظم قد اهتَمَّ بجانبي الصحَّة الداخليَّة (البنية أو الصرف والعلاقات والتراكيب)، والصحَّة الخارجيَّة (المقام أو الحال)، ولا يَخفَى أنَّ اللغة ظاهرة اجتماعيَّة، تتَحدَّد دلالة ألفاظها من خِلال السياق وملابساته.

3- ربَط عبدالقاهر الجرجاني بين مستويَيْن من مستويات اللغة: المستوى الأول: مستوى ما قبلَ النطق، والمستوى الثاني: مستوى ما بعد النطق؛ أي: المستوى الذهني الذي يختصُّ به علماء النفس أكثر من علماء اللغة، وهو مستوى اختِيار المعاني والألفاظ الدالَّة وانتِقاء الأفكار، ومستوى النطق وهي العلاقات والتراكيب القائمة على معاني النحو، الذي يخضَع لدراسة اللغة واختصاصها.

4- ربَط عبدالقاهر الجرجاني بين مستوى ما قبل النطق، والمستوى اللغوي المنطوق، وبين الحال والمقام والذي تتحقَّق به البلاغة، وهو بذلك ربَط بين الفكر واللغة، وهو بهذا يختَلِف عن سابِقِيه حيث اعتبَرُوا وجهَ الإعجاز في الألفاظ "المنطوق" دون المعاني.

5- إنَّ نظريَّة عبدالقاهر تسعى إلى قمَّة سواء سُمِّيت بالقصد أو الغرض أو معنى المعنى، ولا نُدرِك تلك القمَّة إلا من خِلال تفاعُلات مُتواصِلة للدلالات المتشابِكة، بدءًا من دلالات الألفاظ فدلالات العلاقات النحوية، فدلالات الأغراض والمقامات والأحوال، حتى ترسو عند الدلالات

الإضافيَّة (المعاني النفسيَّة)، ولا يُمكِن تحقيق ذلك الغرض إلا بالنظر إلى معنى المعنى وحدَه، الناتج عن ربْط الفكر باللغة، وكذا بالمقامات والأحوال.

6- تَلاقَي عبد القاهر الجرجاني مع علماء اللغة المحدَثين بفكره الفذِّ داخل مجال البحث اللغوي في قضيَّة العلاقات القائمة بين الفكر واللغة من أن لا كيان للغة إلا في ذهن الأفراد، ولا وجود للأفكار بدون كلمات، ولا حياة للكلمات بدون أفكار، وبأنَّ اللغة هي أساس الفكر، وأنها طريق الإنسان إلى إدراك الحياة ومعرفة الحقيقة.

قائمة المصادر والمراجع

أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبان والبديع ، دار هنداوي للنشر والتوزيع ، دط، ص 248

شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط 10 ، د.ت. ص 170

الطاهر القطبي الاستفهام بين النحو والبلاغة 1987 رسالة ماجستير غير منشورة جامعة حلب كلية الاداب، قسم اللغة العربية، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، ص 131

عبد العاطي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان ، الخفاجي، دار الجيل، بيروت، 1993

عبد القادر الجرجاني،دلائل الاعجاز، ط 01 ، دار اليقين للنشر والتوزيع،1991 ص 88

عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة ، دار المعرفة بيروت ط 01 ، 1978 ، ص 47

عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ط 3، القاهرة، دار المدني بجدة. 1990 ، ص 19

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402 ، 1981.

عبد المالك بومنجل ، تأصيل البلاغة ، بحوث نظرية وتطبيقية في اصول البلاغة العربي ، منشورات مخبر المثاقفة العربية في الأدب ونقده جامعة محمد لمين دباغين-سطيف 2

عبد المتعال الصعيدي، البلاغة العالية ، علم المعاني ، دون تاريخ، طبعة01 ، القاهرة

علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 1426 هـ- 2006 م

علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . ومحمد علي البجاوي، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، 1426 هـ- 2006 م

قائمة المصادر والمراجع

قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، 1963 ، ص 301

محمد علي سلطاني ،البلاغة العربية في فنونها، جامعة دمشق،1980 ، ص 21

محي الدين ديب، علوم البلاغة – البديع و البيان والمعاني، ط 1 المؤسسة الحداثية للكتاب-لبنان-طرابلس.2003

محي الدين ديب، علوم البلاغة – البديع و البيان والمعاني، ط 1 المؤسسة الحداثية للكتاب-لبنان-طرابلس.2001 ، ص 321

مهدي صالح السامرائي ،تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، الطبعة الاولى، المكتب الإسلامي ، دمشق ، 1977